البنية السردية
في رحلة ابن جبير

بقلم الباحث

عوض بن تايه الشمري

كلية الآداب والفنون ـ جامعة حائل ـ المملكة العربية السعودية

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م
الجزء الثالث (إصدار ديسمبر)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

البنية السردية في رحلة ابن جبير

عوض بن تايه الشمري
كلية الآداب والفنون ـ جامعة حائل ـ المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني : awdelshamry@yahoo.com

الملخص

الحمد لله فالق البحار، والصلاة والسلام على نبي الهدى، وبعد: فقد تناول هذا البحث (البنية السردية في رحلة ابن جبير) من منظور سردي وما اختاره "جيرارجنيت"، وقد اشتمل هذا البحث على ثلاثة فصول بدايةً بالمقدمة والتمهيد فالفصل الأول حوى على التعريف بالمصطلحات من سرد وبناء وزمن سردي وبنية سردية وحركة المشهد السردي أما الفصل الثاني، فاشتمل على دراسة النص من خلال البنية السردية ، البنية الزمانية والمكانية ، أما الفصل الأخير ففيه العناصر السردية من راوٍ ومروي له وتبئير، أما الخاتمة ففيها النتائج والتوصيات، ومن أهمها أنَّ جل الرحلات قائم على الاستباق والاسترجاع في برها وبحرها ، وأنَّ إبداع ابن جبير يكمن في البحر لا سيما في الريح الغربية التي تحمل الأهوال والصعاب، وإبداع وصفه يكمن في الحرم المكي، ومن التوصيات أن تدرس هذه الرحلة من خلال التقنيات الحديثة وما فيها من تصوير في كاميرات بدقة عالية، وتُعرض بعرض بانورامي مناسب لهذا العصر.

الكلمات المفتاحية : البنية السردية ، رحلة ابن جبير ، البنية الزمانية والمكانية.

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X
٣٠٢٢
الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

Narrative structure in the journey of Ibn Jubayr

Awad bin Tayeh Al-Shammari
College of Arts and Letters, University of Hail, Kingdom of Saudi Arabia .
Email: awdelshamry@yahoo.com

Abstract

Praise be to God, Falaq al-Bahar, and may peace and blessings be upon the Prophet of guidance, and after: This research dealt with (narrative structure in the journey of Ibn Jubayr) from a narrative perspective and what was chosen by "Girargent", and this research included three chapters beginning with the introduction and preamble, the first chapter contained the definition of terms From narration, construction, narrative time, narrative structure, and movement of the narrative scene. The second chapter included a study of the text through the narrative structure, the temporal and spatial structure. As for the last chapter, it contains the narrative elements of a narrator and his narrator and his focus, and the conclusion contains the results and recommendations, the most important of which is that most of the trips It is based on anticipation and retrieval on land and sea, and that Ibn Jubayr's creativity lies in the sea, especially in the western wind that bears horrors and difficulties, and the creativity of his description lies in the Great Mosque of Mecca, and among the recommendations is to study this journey through modern technologies and the imaging in with high accuracy. It is presented in a view suitable for this era.

Keywords: Narrative structure, Ibn Jubayr's journey, temporal and spatial structure.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله مكون الأكوان ومن سخر للإنسان إمتطاء الأرض والبحـــار، المتصرف بآياته العظام يرسل الرياح كيفما يشاء، والصلاة والسلام على من علمنا آداب السفر والترحال في البر والبحر ، وضـــرب لنـــا فـــي رحالاتـــه الصعاب والأمورالعظام ، مبلغا لرسالة ربانية امتنها الله عليه واصطفاه من خلقه ، وعلى آله وصحبه الكرام الذين ساروا في الديار برها وبحرها لنشر دين قيم منير ، وبعد :

لقد اخترت في هذه الوريقات ، "رحلة ابن جبير" وسأدرسها من شقين ، من خلال البنية السردية ، ومنهجها البنيوي ، بناء على توجيه دكتورنـــا الكريم ، وقد اخترت هذه الرحلة لما لي من شـــغف بـــالرحلات وبتســـليط عدستي على كل صغير وكبير ولحرصي على زيارة العديد من المتـــاحف العالمية وتدوينها ومن ذلك زيارتي لمدينة (كازان) بالروسية ، و(قازان) بالعربية فزرت مسجد (قول الشريف) أكبر مسجد في المدينة ويوجـــد فـــي أسفله متحفا "لابن فضلان" والزوار كثر والعربية عنوانه ، فوجدت إعجابـــا بهذه الشخصية ، لكونها رصدت تراثهم، فقررت أن أبحـــث عـــن شخصـــية أعجب بها المستشرقين ، وأثنوا عليها فهذا ، كراتشكوفسكي ، الذي لقب ابن جبير ، (بالكناني) ، وقال : هذا مصنف رفيع الأسلوب ولكـــون هـــذه الرحلة ترجمة إلى الفرنسية ، وبالذات الجزء الخاص بصقلية ، ولما لهـــذه الرحلة من مكانة عند العرب والعجم ، والتي تعتبر تدوينا للديار وتاريخهـــا فهذه الرحلة مجمعا لعلوم شتى وللجغرافيـــا والتـــاريخ وللرســـام وللأديـــب ولدارس المذاهب الدينية والعقائد الأخرى ودلالة تأصيل تلك الـــديار بتلـــك

المذاهب والانتماءات ، ولما حصلت عليه هذه الرحلة من دراسات تاريخية ، ووصفية وجغرافية ، ونحن سننظر لهذه الرحلة من خلال، "النص ولاشيء غيرالنص " ، من خلال البنية السردية ، وترابط عناصر النص من خطاب وقصة ودراستي ستكون من خلال بنية سردية ، بامتطاء راحلة "ياكبسون " ومنهجه البنيوي ، واتساق بنيته الزمانية وما فيه من استباق واسترجاع الذي هو ملازم للرحلات ، والمكان بتنوعه من جاذب إلى شاحب ومن طمأنينة واستقرار إلى هول وخوف ، وما البحر إلا شاهدا على ذلك ، وقد أثرى الرحلة بالمشاهد الجمة ، وحركة المشهد السردي في ثنايا هذه الرحلة، المليئة بتلك المشاهد والعجائب ، من بشر وحجر ، وقد عرفنا ما نريد أن نطبقه على الرحلة ، من خلال مصطلح السرد لجيرالد برنس ، وبعضا من المعجمات المتخصصة بالسرد وتيقنت أن لكل ناقد مصطلحات تناسب رؤيته ، وللرجوع لما اشتهر من المصطلحات السردية واتفق عليها رغم كثرتها ، وقد قال رولا ن بارت :" إن أنواع السرد في العالم لا حصر لها وهي قبل كل شيء تنوع كبير في الأجناس وهي ذاتها تتوزع إلى مواد متباينة [١].

ونهلنا ، من جيرارجنيت ، وكتابه (خطاب الحكاية) الذي لابد للرجوع له لمن أراد الحديث عن السرد ، والغوص فيه ، فالسرد ليس علما بلا عناصر بل لابد له من عناصر يسير عليه، فهو من يصنع العنصر الفني ، ومن جمال هذه الرحلة ، أن الأديب يسرد في البر والبحر ، وما الذي تميز

(١) رولان بارت ،طرائق تحليل السرد الأدبي ،مقالة التحليل البنيوي للسرد ،ترجمة ،حسن بحراوي ،بشير القمري ،عبدالحميد عقار ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ،الرباط ، ط١ ، ١٩٩٢،ص ٩

فيه الأدب في البر والبحر فالراوي كيف يروي وهو في هولٍ عظيم وكيف سرده وهو مطمئن المسير في إبحاره ، ومعلومات مهمة عن سير المركب وأفضل الرياح التي هي المتحكم بالرحلة بأمر الله عز وجل فتجده دائما يذكر فإذا كانت شرقية اطمأن أهل المركب ، أما إذا كانت غربية فالمركب يتعرض للصعاب والتوهان ، فيفقد الطريق وقد يفقد الصديق ، وذكر ذلك ، أهوال عظيمة ، ودائما ابن جبير يبحر ، ومشاعره الدينية حاضرة ، فهنا التبئير موجود، وهو التركيز على الشيء وتكراره وهنا بل ذكر أنه كان يدعو الناس ويرشدهم حتى في المدن التي يزورها وكان حريصا على الدعاء للمدن المسلمة التي يمر بها " حرسها الله ، سلمها الله ، كلأها الله ...:" أما مدن الأفرنجة فيدعو عليها وعلى حكامه بالهلاك والزوال ، ومن سمو نفسه دائما يذكر أجمل ما في المدينة من مساجد وعلماء أجلاء ، ولم يتطرق لعري في تلك المدن إلا في مناسبة واحدة ، وذلك عندما حضرعرسا عند الإفرنجة ، ثم استغفر وأناب وعندما وصلت رحلته إلى مكة ، وهي التي وصف كل دقيق وجلي فيها فكل شيء أعطاه حقه حتى تحسبه قد أحضر كاميرا دقيقة التصوير بل وفيها تسجيل لما يدور ، وهذه دلالة على موهبة هذا الرحالة ، فمن قرأ لابن جبيركمن شاهد ذلك بعينه وكمن عاش تلك الحقبة الزمان .

وسوف تتضمن دراستي ما يلي :

أولا : التمهيد : ذكر أدب البحر ، والتعريف بابن جبير، وأهمية الرحلة ومكانتها .

ثانيا : البحث ، ويشمل ، الفصل الأول :

١. السرد ، في المعجم ، والاصطلاح.

٢. البناء لغة ، واصطلاحا

٣. الزمن السردي:

أ- الاستباق.

ب- الاسترجاع.

١. البنية السردية

٢. حركة المشهد السردي.

الفصل الثاني : دراسة النص من خلال النظرية البنيوية

الدراسة البنيوية من خلال

أ ــ البنية الزمانية :

١. الاستباق ، وتطبيقه على رحلة الكناني

٢. الاسترجاع وإيضاحه في الرحلة

٣. حركة المشهد وتحديدها في الرحلة

٤. خطاب الذات والآخر

ب : بنية المكان :

١. من خلال البر، وإيضاح الأماكن التي رصدها برحلته .

٢. من خلال البحر ، وتواجده على الساحل أو في الأعماق.

٣. المكان العجائبي ، في الرحلة .

الفصل الثالث : العناصر السردية

١. الراوي ، وتحديده في الرحلة

٢. المروي له ، وتسليط الكشاف عليه في البر والبحر

٣. الصيغة (التبئير).

وسنقتنص من هذه الرحلة السمين من الشواهد التي لابد أن نستفيض فيها لما تحويه من أماكن مهمة وعجيبة، ، وسنتسلح بمجاديف " رولان بارت، وعناصر "جيرارجنيت "، وبعض المشاهد قد ندرسه على شكله البنيوي ، وعلى عناصر السرد أيضا من راوي ومروي له ، فالرحلة مليئة بالمشاهد العظام ، فلم أجد بعد بحث مطول، وعلمي البسيط ، فيمن غاص بالسرد في البر والبحر معا فأدواتنا لترحالنا قد زهبت ، اللهم سدد قولنا ويسر أمرنا فما أنا إلا غواص يغوص ولايدري أهي درة أم حجرة ونسأل الله السلامة ، والسلام .

مرتحل مبتدئ : عوض بن تايه الشمري ١٦ /٨ / ١٤٤١ هـ.

التمهيد

أدب البحر :

البحر مكان تأمل وتدبر وتفكر للعباد ودلالة من الدلالات العظام على عظمة الخالق ، فتجده مليء بالأمل والألم ، فالمشاعر متفاوتة كما المد والجزر ، الذي يتلازم مع هذا البحرالزاخر وهذا المكان العظيم المهيب ، قال تعالى : (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذاهم يشركون) فتجد العبودية قد وحدت والعقيدة قد أخلصت لله وحده لاشريك له ، والرجاء والخوف قد أخلص لله جل في علاه . فالمكان المهيب هو سيد الموقف والريح هي التي تصنع الطمأنينة والخوف ، وكل ذلك بأمر الجبار ، قال العزيز العليم (ولوأنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) وقد ضرب الله سبحانه لشدة الظلمة في البحر بقوله تعالى : (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نور فماله من نور) ، فالعتمة الشديدة تخيف في البر فكيف بالبحر! ويذكر لنا أحمد عطيه في قوله " ويوجز أحمد عطية القول في أدب البحر : " وأدب البحر موضوع خصب يتصل بالحضارة الإنسانية بوجه عام ، وبالحضارة العربية على وجه الخصوص ، وللعرب إسهامات هامة في عالم البحر وفي أدب البحر ، لا تنفصل عن دور الحضارة العربية المؤثر في الحضارة الإنسانية ، بل إن أدب البحر العربي يتميز بالثراء والتنوع في المادة الأدبية والعملية بشكل لا تكاد تجده في أدب أي شعب آخر " [١] والنفس وهي تسبح على ظهره تعيش حالة غير ما هي عليه في البر ، حيث مزيج المشاعر ،

(١) أحمد محمد عطية ، أدب البحر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ص ٨

وسرعة التقلب ، فالنفس تتقلب فيه بتقلب الريح وتقلب الموج ، وتعصف العواصف في البحر فتعصف بالمراكب والنفوس ، فلا غرابة أن يتقلب راكب البحر في مزاجه وتصوراته بل في عقائده

أ ــ التعريف به: ابن جبير (٥٣٩ ــ ٦١٤ هـ)

محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين: رحالة أديب. ولد في بلنسية، ونزل بشاطبة، وبرع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق وحذ ق الإقراء، وأولع بالترحل والتنقل فزار المشرق ثلاث مرات إحداها سنة ٥٧٨ – ٥٨١ هـ وهي التي ألف فيها كتابه " رحلة ابن جبير – ط " ومات بالإسكندرية في رحلته الثالثة.

ويقال: أُنه لم يصنف كتاب رحلته، وإنما قيَّد معاني ما تضمنته فتولى ترتيبها بعض الآخذين عنه، ومن كتبه: نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان وهو ديوان شعره، على قدر ديوان أبي تمام، ونتيجة وجد الجوانح في تأبين القرن الصالح، مجموع ما رثى به زوجته أم المجد[١]

ب ــ رحلتـــه:

ــ التعريف بالرحلة :

الرحلة التي نحن بصدد دراستها هي التي كانت من مسقط رأسه الأندلس إلى مرفأ الإسكندرية في مصر ، وهي مرحلة طويلة استغرق ثلاثين يوما تحدث عنها في أربع صفحات ، ثم المرحلة الثانية ركب البحر من مرفأ عيذاب على ساحل البحر الأحمر الغربي (بين مصر والسودان) إلى ساحل

(١) خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ط١٥ ، دار العلم للملايين ، ج٥ ، ص ٣١٥

جدة ، وقد استغرقت هذه المرحلة ثمانية أيام ، وصفها في كتابه في قرابة ثمان صفحات ، والمرحلة البحرية الثالثة ــ وهي ثالثة الأثافي ــ فهي المرحلة الأمر والأدهى وذلك لعظم الهول وفداحة الخطب مما لقي المسافرون في البحر ، وهي رحلة العودة من سواحل عكا في بلاد الشام إلى أرض الوطن الأندلس عبر عباب البحر المتوسط ، وقد استغرقت هذه الرحلة أكثر من شهر ، فصل القول فيها على نحو شائق مثير في قرابة سبع وثلاثين صفحة [١]

ــ قيمة الرحلة:

أشاد بالرحلة أكثر من عالم على اختلاف تخصصاتهم ، فالرحلة لها قيمة أدبية ، كما أن لها قيمتها التاريخية ، يقول كراتشكوفسكي عن سرد ابن جبير وهو يطل على الرحلة من زاوية قريماس : "ووفقا لمضمونها فإن (رحلة الكناني) تمثل أهمية قصوى في تصوير حياة ذلك العصر ، فهي تقدم وصفا حيا لمصر و الشام عندما بدأت فيهما حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبين بزعامة نور الدين وصلاح الدين[٢]

ويطل كراتشكوفسكي على سرد ابن جبير من الخارج على طريقة جيرارجينيت فيقول : " وتعتبر رحلة ابن جبير من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي ، وإذا كان وصفه المفصل للأبنية مملا للقارئ العادي فإن أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير ، مثال ذلك وصفه لجمارك الإسكندرية أو لكارثة السفينة على سواحل صقلية ، أما

(١) صالح بن محمد المطيري ، بنية اللغة وأفق الأدب ، ص

(٢) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، إدارة الثقافة في جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ١ ص٣٠٠

عرضه العام فيستهدف الصنعة والأناقة ، وهو كثيرا ما يلجأ إلى السجع الذي يعالجه بالكثير من المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارئ إلى تكلف الجهد في تفهمه ، كما يشحن كتابته بالاقتباسات الأدبية والإشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع حتى يضحي مفهوما للقارئ .... وهو مصنف رفيع الأسلوب يختم بجدارة حلقة الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر" (١).

(١) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، إدارة الثقافة في جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ١ ص٣٠١

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

الفصل الأول: المنهج

١. السرد، في المعجم ، والاصطلاح.

٢. البناء لغة، واصطلاحا

٣. الزمن السردي:

أ- الاستباق.

ب- الاسترجاع.

١. البنية السردية

٢. حركة المشهد السردي.

ما السرد في المعجم والاصطلاح:

في المعجم: عند ابن منظور "تقدمة شيء إلى شيء تأتي به متسقا بعضه في إثر بعض متتابعا . سرد الحديث ونحوه يسرد سردا إذا تابعه ، وفلان يسرد الحديث سردا إذا تابعه ، وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق"(١).

أما عند الفيروزبادي ، فالسرد الخرز في الأديم كالسراد بالكسر والثقب كالتسريد فيهما ونسج الدرع واسم جامع للدروع وسائر الحلق وجودة سياق الحديث ٢.

أما في المعاجم الغربية ، نجد أن لفظة سرد ، قد ورد ذكرها في المعجم الفرنسي الشهير " لاروس " إذ إنها تعني (قص ــ حكي ــ روي)(٣)

اصطلاحا: فسنركز على من ابتكر الصطلح ومن أسس قواعده، وهما (تودروف وجنيت) يعد تزفيتان تودروف ، هو من ابتكر هذا المصطلح عام ١٩٥٥م "فاستعمل تودروف مصطلح السرد(Narration) بمعنى الحكاية . ويستعمل مصطلح السرد أيضا علاوة على كونه العمل التواصلي الذي به وفيه ينقل المرسل رسالة ذات مضمون قصصي إلى مرسل إليه ، رديفا لكلامه باعتباره وسيطا يحمل الرسالة المذكورة (٤) .

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ،

(٢) الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ،بيت الأفكار الدولية ،ص١٨٢

(٣) جان دوبوا، لاروس(فرنسي، عربي)،مر :شفيق الأرناؤوط Narrer ،ص60

(٤) محمد القاضي ، معجم السرديات ،مكتبة الأدب المغربي ، ص٢٤٦

وعرفه تزفيتان تودروف ، بأنه ليس مجرد عرض لتسلسل أحداث ، بل هو قصة الصراع بين نظامين ، نظام الكتاب ونظام سياقه الاجتماعي [١]

أما جيراجينت ، فعرفه ، بأنه عرض لحدث أو لمتوالية من الأحداث حقيقية أوخيالية عرض بواسة اللغة وبصفة خاصة بواسة لغة مكتوبة [٢]

أولاً: مفهوم المصطلح السردي

من القضايا التي أثارت جدلا واسعا في الميدان الأدبي ، فأرادوا العلماء وضع أسس للسرد ، يقوم عليها ويرتكز على عناصرها ، ومن هؤلاء الذين يشهد لهم بالأسبقية جيرار جنيت في كتابه " خطاب الحكاية "، فذكر الصيغة وقال ، "هي اسم يطلق على أشكال الفعل المختلفة التي تستعمل لتأكيد الأمر المقصود وللتعبير عن وجهات النظر المختلفة التي ينظر فيها إلى الوجود أو العمل ، وهذا التعريف الملائم الذي لاغنى لنا عنه البتة، فالمرء يستطيع فعلا أن يروي كثيرا أو قليلا مما يروى ، وأن يرويه من وجهة النظر هذه أوتلك ، وهذه القدرة وأشكال ممارستها بالضبط ، هي "صيغة السرد "[٣] فالكل ناقد معجم سردي يرى أنه الأجدى بأن يستعمل ويبنى عليه السرد ، فتجده قد أضاف ما يناسب فلسفته فيه .

---

(١) تزفيتان تودروف ، طرائق تحليل السرد الأدبي ، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد صفا ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ،ص ٦٩

(٢) جيرارجنيت ،طرائق تحليل السرد الأدبي ، ترجمة بن عيسى بوحمالة ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ص ٧١

(٣) جيرار جنيت ،خطاب الحكاية بحث في المنهج ،ترجمة محمد معتصم وآخرون،ط٢ ،ص ١٧٧

ثانيا : البناء لغة واصطلاحا :

لغة : البناء ، المبني ، البني : نقيض الهدم بناه، يبنيه، بنيا، وبناء، وبنيانا، وبنية ، وبناية ، وابتناه، وبناه.

والبنية ، بالضم والكسر : ما بنيته ، وتكون البناية بالشرف .وأبنيته أعطيته بناء أو ما يبني به دار، وبناء الكلمة : لزوم آخرها ضربا واحدا من سكون أو حركة لا عامل له .[١]

البنية اصطلاحا : هي شبكة العلاقات التي تتولد من العناصر المختلفة للكل بالإضافة إلى علاقة كل عنصر بالكل [٢]

وبما أننا نتكلم عن الرحلات فسنتطرق ، عن بنية الرحلة في الأدب العربي، فتتكون الرحلة من أكثر من بنية رئيسة فمن ذلك ما يلي :

١ــ بنية تاريخية : ففي الرحلة إشارات لحوادث في تاريخ الحضارة الإسلامية، وتعد الرحلات وثائق تاريخية تكشف عن طبيعة المرحلة التاريخية .

٢ــ بنية جغرافية : ومن خلال الرحلة تبرز كذلك البنية الجغرافية للبلاد والمدن التي مر بها الرحالة وما فيها من ذكر لمناخها ومعالمها وطبيعة تضاريسها ، والتركيبات السكانية في القرى والمدن

(١) الفيروزبادي ، القاموس المحيط ، ص ١٧٣
(٢) جيرالد برنس ــ المصطلح السردي ، ص ٢٢٤

٣ ــ بنية أنثروبولوجية : تتحدث عن أجناس أهل القرى والمدن التي زارها الرحالة وعن عاداتهم وعقائدهم ، ومللهم ونحلهم والمهن التي يمتهنونها وممارساتهم الاجتماعية والثقافية ، وطقوسهم الدينية .(١)

ثالثا : **الزمن السردي**: التحديدات الزمنية للمقام السردي، في الزمن الحاضر أو الماضي أو المستقبل، وهو أهم من التحديدات المكانية (٢).

الزمن السردي لايتقيد بالتتابع المنطقي للأحداث، فالزمن السردي ، لابد أن تكون هناك مفارقة زمن السرد مع زمن القصة ، أيضا هناك إمكانية استباق الأحداث في السرد بحيث يتعرف القارئ إلى وقائع قبل أوان حدوثها الطبيعي في زمن القصة وهكذا ، فإن المفارقة إما أن تكون استرجاعا لأحداث ماضية ، أو تكون استباقا لأحداث لاحقة (٣).

أ- الاستباق : عرفه جيرارجنيت ، بقوله : "كل حركة سردية تقوم على أن يروى حدث لاحق أو يذكر مقدما "(٤)

وعرفه جيرالد برنس ، بقوله : "مفارقة تتجه نحو المستقبل بالنسبة إلى اللحظة الراهنة، فتفارق الحاضر إلى المستقبل، أو إلماح إلى واقعة أو أكثر ستحدث بعد اللحظة الراهنة ، أو اللحظة التي يحدث فيها توقف للقص الزمني ليفسح مكانا للاستباق ".(٥)

---

(١) بتصرف ،فرحان علي عبد النبي إبراهيم ،السرد الرحلي وصورة الراوي :دراسة في رحلة ابن جبير ، رابطة الأدب الحديث ،ص ١٢٨

(٢) جيرارجنيت ،خطاب الحكاية ،ص ٢٣٠

(٣) حميد الحميداني ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ،المركز الثقافي العربي ، ط١، ١٩٩١ ، ص ٧٣،٧٤

(٤) جيرارجنيت ،خطاب الحكاية ، ص٥١

(٥) جيرالد برنس ،المصطلح السردي ، ص ١٨٦ .

ب ــ الاسترجاع :عرفه جيرارجنيت ، بقوله :" كل ذكر لاحق لحدث سابق للنقطة التي نحن فيها من القصة .[١]

وعرفه جيرالد برنس ، بقوله : " مفارقة زمنية تعيدنا إلى الماضي بالنسبة للحظة الراهنة ، استعادة لواقعة أو وقائع حدثت قبل اللحظة الراهنة، أو اللحظة التي يتوقف فيها القص الزمني لمساق من الأحداث ليدع النطاق لعملية الاسترجاع .والاسترجاع له فسحة معينة وكذلك بعد معين ، فالاسترجاع والعودة يملأ الثغرات السابقة التي نتجت من الحذف أو الإغفال في السرد ، والاسترجاعات المتكررة والعودة تعيد ذكر وقائع ماضية "[٢]

رابعا : **البنية السردية** : " هي شبكة العلاقات الحاصلة بين القصة والخطاب والقصة والسرد والخطاب والسرد ".[٣]

والبنية السردية تعتبر من مراحل بنى الرحلات ، "وفيها يقوم الرحالة بسرد حركة تنقله وما مر به في رحلته من أحداث وصعوبات وأتراح وأفراح ومنغصات وعقبات ، وما نقل إليه من حكايات أو حوادث وقصص" [٤]

خامسا : حركة المشهد السردي

" وهو التطابق بين زمن الخطاب وزمن الأحداث"[٥]

---

(١) جيرارجنيت ،خطاب الحكاية ،ص ٥١

(٢) جيرالد برنس ،المصطلح السردي ، ص ٢٥

(٣) المرجع نفسه ،ص ٢٢٤

(٤) فرحان علي عبد النبي إبراهيم ، السرد الرحلي وصورة الراوي ،ص١٣٢

(٥) عمر عيلان ، في مناهج تحليل الخطاب السردي ، ص ١٠٠

ويقول جيرار جنيت: إن كلية النص السردي يمكن أن نحدد بأنها مشهد [١]

وعرفه جيرالد برنس ، بقوله : المشهد أو اللقطة ، مدى تسارع حركة السرد النهجية وهي مع الإغفال والوقفة والتمدد أو البسط ، والخلاصة واحدة من السرعات السردية الأساسية وحينما يكون هناك نوع من التكافؤ بين جزء بين السرد وبين المسرود الذي يمثله الحوار ، وحين يعتبر زمن الخطاب مساويا لزمن القصة فإننا نحصل على المشهد .[٢]

(١) جيرار جنيت ،خطاب الحكاية ، ص ١٢٠

(٢) جيرالد برنس ،مصطلح السردي ، ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤

الفصل الثاني

دراسة النص من خلال النظرية البنيوية

أولا : **الدراسة البنيوية من خلال البنية الزمانية** :

- الدراسة البنيوية من خلال البنية الزمانية :
- الاستباق ، وتطبيقه على رحلة الكناني .
- الاسترجاع وإيضاحه في الرحلة .
- حركة المشهد وتحديدها في الرحلة .
- خطاب الذات والآخر .

ثانيا : **بنية المكان**

- من خلال البر وإيضاح الأماكن التي رصدها برحلته .
- من خلال البحر ، وتواجده على الساحل أو في الأعماق.
- المكان العجائبي ، في الرحلة .

أولاً: البنية الزمانية

أ- الاستباق ، وهو جلي وواضح في رحلة الكناني ، وهو متأصل في الرحلات ، لما له من تشويق للمتلقي لما سيحصل وسنسير مع الرحلة التي استبقنا الشوق لمعرفة البنية السردية لها.

يقول ابن جبير : " ولو ذهبنا إلى رسم كل موضع يعترضنا في شـطي النيل يمينا وشمالا لضاق الكتاب عنه ، لكن نقصد من ذلك إلى الأكبر الأشهر .وقابلنا على مقربة من هذا الموضع مياسرا لنا المسجد المبارك المنسـوب لإبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه وعلى نبينا ، وهو مسـجد مـذكور مشهور معلوم بالبركة مقصود ، ويقال : إن بفنائه أثر الدابـة التـي كـان يركبها الخليل صلى الله عليه وسلم " [1]وعدم استطاعة لرصد كل شـيء ، فاستعملت الصفة المشبهة على وزن "أفعل " فالاستباق حاضر لدى السـارد ومعرفته بالأماكن المشهورة ودلالة على الاطلاع "وهو مسجد هنا اسـتباق بالرصد مشهور معلوم " فهنا تتابع للصفات وتزامن مع الخطـاب ، ويقـال كلمة للمجهول للقائل هل هي صحيحة أو غير ذلك ، فتجد الـنص برمتـه مترابط الأجزاء ، فذكر أنه لن يحصي كل شيء وهذا ينم علـى كثـرة مـا سيرصد ثم بعد ذلك يبين باستباق المكان الأشهر والذي ذكر له فرآه، وهنـا استباق داخلي حيث بدأ بتبيين ما سيدونه في رحلته ثم بعد ذلك دون الأجدر بالتدوين .

ويذكر لنا الكناني ، من خلال أشنع ما شهدناه " ومن أشنع ما شهدناه من ذلك خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة ، في أيديهم المسال الطـوال

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ،ص ٣٣

ذوات الأنصبة ، فيصعدون إلى المراكب استكشافا لما فيها ، فلا يتركون عكما ولاغرارة إلا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة مخافة أن يكون في تلك الغرارة أو العكم اللذين لايحتويان سوى الزاد شيء غيب عليه من بضاعة أو مال ، وهذا أقبح ما يؤثر في الأحاديث الملعنة وقد نهى الله عن التجسس، فكيف عن الكشف لما يرجى ستر الصون دونه من حال لايريد صاحبها أن يطلع عليها ، إما استحقارا أو استنفاسا دون بخل بواجب يلزمها، والله الآخذ على أيدي هؤلاء الظلمة بيد هذا السلطان العادل ، وتوفيقه إن شاء الله ." [١] يحكي " أشنع ، شاهدنا ، شرذمة " ألفاظ تدل على أن السارد واصف متفرج لما يحصل ، " لايتركون ، ويتخللونها ، لايحتويان، لايريد " أفعال للاستمرار هذا المشهد ، ثم يستعمل التعجب والاستنكار لما يرى من مخالفات جمة لاتليق بفعلها فيستنكرها الدين العظيم ، ثم يدخل في استباق يشتاق له بل يحرص عليه كل من سلك هذا المكان ، ويرى بالقائد السلطان العادل ، وينعته بألفاظ ترفع الظلم ويركز على العدل ، فتجد الاستباق داخل الحكي ، بل هو حل ومطلب ، فتجد البنية السردية متلائمة ، فطغيان وظلم يقابله إزالة والتجاء للمولى بالأخذ بهؤلاء الشرذمة ، أيضا استباق متمم لكي يأمن الطريق وتكون الرحلة آمنة مطمئنة ، وهنا توقع بزوال هذه الكربة ، بالقوة الإلهية ثم بعدل هذا القادم وهو القائد .

ومن ذلك ، قول الكناني " وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لادين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتى ، وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة ، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها :

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٣٩

ينتهبونهم انتهابا ، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا ، فالحاج معهم لايزال في غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله له رجوعه إلى وطنه "

هنا معرفة استباقية للسارد وأحوال هذه الجهات واعتقادهم بمن وصل إليهم فهنا استباق لهؤلاء الذين مر بهم الحاج فتطابق استباق السارد مع استباق هؤلاء فحري وهنا استباق داخلي متمم لما سيحصل وحصل ما ذكره(١)

ويذكر لنا الكناني ، في أحد أيام إبحاره ، بقوله : "وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه تحركت الريح الشرقية نسيما فاترا عليلا ، فاستبشرت النفوس بها رجاء في نمائها وقوتها ، فكانت نفسا خافتا ، ثم بعد ذلك غشي البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ، ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم ، فبقينا لاعبين على صفحة ماء ، تخاله العين سبيكة لجين ، كأنا نجول بين سماءين ، وهذا الهواء الذي يسميه البحريون الغليني .(٢)

تجد الاستباق مبشرا لامنفرا معينا، ثم يستخدم التي تدعو للنماء والقوة ، ثم تبدأ الألفاظ الأدبية تتلألأ كما يتلألأ هذا البحر هنا استباق خارجي ليس له علاقة بالحكاية والخطاب الأول، ثم يسحر الألباب بوصف جذاب (كأنا نجول بين سماءين) صور بديعة وتشبيهات تجعلنا نتسابق لهذه الرحلة لهفا ، وماهذا الاستباق إلا داعيا للسياحة ، فالبنية السردية من قصة وخطاب قد تجلت ، ففي البداية ريح شرقية وهي ، عند أهل الإبحار ريح

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير،ص ٥٤
(٢) المرجع انفسه، ص ٢٨٦

تدعو للإطمئنان ثم يستحضر الاقتباسات من أجل الكتب وأرفعها قدرا "صرح ممرد من قوارير "فيؤتى بالنص بتشبيه بديع ، ثم يختمها "بالغليني" فتجد الاستباق كان له ماأراد ، بل تجده استتنير به في النص .

ب- الاسترجاع ، وهو أمر لابد له في الرحلات فلا يوجد رحلة بلا استرجاع ، فالرحلة مبنية عليه ، لكونها تدون لاحقا ، وفيه استعادة لأحداث ماضية وقياس على ما حصل في هذه اللحظة ، ومن ذلك قول الكناني : "ومات فيه رجلان من المسلمين ، رحمهما الله فقذفا في البحر ، ومن البلغريين اثنان أيضا ، ومات بعدهما خلق كثير وسقط منهم واحدا منهم في البحر حيا ، فاحتمله الموج أسرع من خطفة البارق ، وورث هؤلاء الأموات من المسلمين والنصارى البلغريين رئيس المركب ، لأنها سنة عندهم في كل من يموت في البحر ، ولاسبيل وارث الميت إلى ميراثه "[1] ، فالاسترجاع لشيء قد مضى مشابها ، لهذا الموقف ، وذلك بميراث رئيس الركبان لمن يموت من على هذا المركب ، فتجد الاسترجاع متكرر وأمر مسلم له بل هو عرف يعمل به ، وتجد الألفاظ مخيفة بل مرعبة " فاحتمله الموج أسرع من خطفة البارق " ففيها هول عظيم ، ومما يزيد الألم من سقط حيا ، فكأننا نعيش في معركة وهناك من يصطاد الغنائم ويترصد ، فهنا استرجاع خارجي ، يعود إلى ما قبل الرواية فالسارد خارج الحدث وإنما هو مصور لهذا الهول العظيم والحرب البحرية التي راح منها خلق كثير .

ومن استرجاعات الكناني ، والتي لابد أن يسترجعها، وذلك للأهوال العظام والتي رأى فيها الافتراق عن الحياة واليأس قد أحاط به من جميع

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير،ص ٢٨٧

النواحي ، فيقول :" وفي ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور وهو السادس والعشرون من شهر يوليه ، كان نزولنا بجدة حامدين لله عزوجل وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عايناه في تلك الثمانية الأيام طول مقامنا على البحر واختلاف رياحه وكثرة شعابه المعترضة فيه ، ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها واقتصامها المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه أوجذب مرساة من مراسيه ، وربما سنحت الجلبة بأسفلها على شعب من تلك الشعاب

أثناء تخللها فنسمع لها هدا يؤذن باليأس ، فكنا فيها نموت مرارا ونحيا مرارا ، والحمدلله على ما من به من العصمة وتكفل بها من الوقاية حمدا يبلغ رضاه ويستهدي المزيد من نعماه ، بعزته وقدرته لاإله سواه "(١) فالاسترجاع لماضي مهيب فيه من الصعاب والحتف الشيء الكثير ، وما فيه من المغامرات التي تجعل القلب يهلع لأن الروح قد تخلع ، فالاسترجاع داخلي يعود ، فالاسترجاع داخلي يعود إلى ماض قد تأخر تقديمه في النص، ويتضح لنا بنية النص وما فيه من ترابط بين أجزاءه فتجد السارد يبين شعاب البحر العظام والتي بتصريف الله هي مكان الأهوال والآهات فألفاظ " اليأس ، الموت ، مرارا " كل تحمل لنا بنية سردية مليئة بالحزن والأهوال ، فهذا المركب يتهاوى ، فكأنه تقاطع والشعاب تصطدم به من كل جهاته وهي تقذفه في العميق ثم ترميه بالسحيق ثم بعد ذلك ترفعه لتنقذه من الوحل العظيم وكل ذلك بتقدير العليم ، فالاسترجاع ثابت في ذاكرة السارد وسيحكي ذلك تكرارا ومرارا ، على من يسأله عن الأهوال والصعاب ، فمواقف لا تنسى يسترجعها كل هائم في البحر .

---

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير، ص ٥٢

ومن الاسترجاعات في هذه الرحلة ، قوله : "وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمرو بن العاص رضي الله عنه ، وله أيضا بالأسكندرية جامع آخر هو مصلى الجمعة للمالكيين ، وبمدينة مصر آثار من الخراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين ، وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة ، وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل ، وهي مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظمة اختاطفها فيما سلف " [1]الاسترجاع تاريخي لما حل في الفتنة التي ذكرها والمأساة التي وقعت في ذلك العصر ، فتجد السارد يحضر آثار الدمار بتلك الديار والآثار ، فيجتمع في

سرده وبنية نصه ، تحديد للزمن بمطابقته للقصة ، ثم يضع لنا باسترجاعه حضارة هذا المكان فمن آثارعريقة ، ومن حضارة عظيمة ، تحولت إلى خراب ، ثم إعمار وبناء ، فتحصل مقارنة الإفساد ثم الإصلاح، أيضا يبن لنا السارد اطلاعه على تاريخ هذا المكان قبل وصوله ، وأن هذه المحرقة ، معروف زمانها ومكانها ، فهي من الأمور العظام التي مرت بهذه المنطقة فتجد المدينة " البنيان مستجد " دلالة على أن هذه المحرقة طالت معظم الأجزاء فأفعالها شنيعة بهذه المدينة .

ويتجلى الكناني بعد وصوله لمكة ، فيقول :"مكة شرفها الله ، كلها مشهد كريم كفاها شرفا ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم وما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم وأنها حرم الله وأمنه ، وكفاها أنها منشأ النبي صلى الله عليه وسلم، الذي آثره الله بالتشريف والتكريم وابتعثه بالآيات

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ،ص ٢٩

والذكر الحكيم ، فهي مبدأ نزول الوحي والتنزيل وأول مهبط الروح الأمين جبريل ، وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الأكرمين وهي أيضا مسقط رؤوس جماعة من الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين ونجوما للمهتدين "[١]. فهنا الاسترجاع بعظم المكان في قلب السارد ، فتستحضر الكلمات الكريمة والشرف العظيم ويجتمع ذكر الخليل وأنبياء الله أجمعين وهو استرجاع ممزوج داخلي وخارجي ، وعائدا إلى ما قبل الرواية، ولاحقا لبداية الرواية ، فتزدان الكلمات والعبارات وتتسم بالتشريف للمكان ولمن سكن به ، ثم يستحضر تاريخ المكان وعراقة أهله ، ويذكر الألفاظ الإسلاميىة العظيمة من آيات ، وذكر ، وجبريل ، ورسله الأكرمين ، الصحابة رضي الله عنهم ، ومكة " فهذه تجد فيها الترابط الإسلامي وتأسيس دين عظيم ، بوحي ورسالة ، ونبي مرسل ، وصحابي مقتد ، فتجد النص فيه ترابطا دينيا واضحا لا شوب فيه متدرجا بين ما قام عليه الإسلام واتكأ على أركانه العظام ، فالاسترجاع متأصل لدى السارد ، بل تجده بثنائه قد بين أن الماضي لهذا المكان عظيم ، وفيه ذكر حكيم من رب عليم.

فالثبات في الاسترجاع دلالة على الانتماء لهذا المكان جسديا وروحيا ، كما في بنية النص وما فيها من وئام واتساق بين كلماته " القرشيين ، المهاجرين ، المهتدين " فالألفاظ متناسقة وبديع التجاور موجود وكيف لايكون ذلك وهو في استرجاع عقيدة ربانية اتسمت بالتأصيل ، واستعمل صيغ منتهى الجموع في منتهى الجمال "بمصابيح " فتجد أن ترابط النص بنسب النور لأهلها فهم يضيئون كأنهم علامة يستدل بها من أضاع الطريق.

---

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٩١

ج- حركة المشهد السردي

في رحلة "الكناني " تجد المشاهد السردية متوافرة ، وكيف لاتكون ذلك وهي رحلة برية بحرية تمر بالديار والآثار والأماكن العظام وما فيها من أهوال وحوارت مع النفس أولا ومع الغير أحيانا ، ففيها مشاهد كثيرة، نطل عليها من خلال تساوي زمن السرد بزمن القصة ، ومن ذلك قول الكناني في رحلته :" ومن أغرب ما شاهدناه من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليته عمة الأمير مكثر ، فإن أذيال ستره كانت تنسحب على الأرض انسحابا ، وغيره من هوادج حرم الأمير وحرم قواده ، إلى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزا عن الإحصاء ، فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة ، فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق "[١] تجد النص التقى فيه زمن السرد بزمن القصة ، وذلك مشاهد جاذبة حرية بالجذب لما في هذا الهودج من فخامة وتميز عن غيره من الهوادج فتجد العين لا تستطيع إحصاءه أو الإحاطة به ، فالمشهد فيه إعطاء الشخصية في الحرية للتعبير عما يرى وما لفت نظره وجعل العين تدقق فيه، رغم ذلك تجد المشهد مبهجا والهوادج وكثر ، وهناك دلالة على أن هذه الهوادج والأميرة لم يسيروا إلا لأمر عظيم ، وفيه تقديس وإجلال ، ثم في النص يتضح تنوع الألوان دلالة على الجمال والثراء والاستعداد للمسير في أبهى صورة وأعلا مقام فالمشاهد ارتكزت على الأميرة وتجد أن من حولها يعظمون هذا الهودج ومن فيه ، ثم تتوالى التشبيهات في النص ، كالقباب المضروبة، فاجتمع جمال الهوادج، وجمال الوصف ، وعظم المسير.

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٣٤

ومن المشاهد التي قامت على الحوار عند الكناني بقوله :" وأضافتني أخت هذا الأمير يوما ، فقالت لأخيها :اسأل لهذا الرجل ، فإني أكون مع زوجي وأحتلم ؟فهل يجب علي الغسل ؟ فتعجبت منها وقلت له :قلها ، قد سألت امرأة من الأنصار رسول الله صلى عليه وسلم ، عن مثل هذا ؟ فقال: إذا رأت الماء تغتسل"(١)

"فتبدو أهمية هذا المشهد الحواري الذي أثار عجب الغرناطي ، على الرغم من قصره ، في أنه كشف عن رغبة المرأة في التفقه في الدين ، وعدم الحياء في طرح بعض القضايا ذات الخصوصية النسوية التي تحتاج إلى تفسير ديني واضح لها .(٢)

فهذا المشهد الحواري مع الغير قائما على طلب المعرفة وإبداء الرأي بحرية تامة ، إزاء هذا الموقف ، بل طلب علم ومعرفة بسؤال وجواب ثم اهتمام بحوار سابق لما حصل لشخصية عظيمة ، في كل شيء وفيه استرجاع لجواب سابق ، لامرأة مثل السائلة ، تحمل نفس المعتقد وتقدس هذه الشخصية، فتجد المشهد الحواري بحركته ، يتطابق فيه الزمن السردي بزمن القصة .

ومن المشاهد التي تجذب القارئ ، وتجده يقف عندها، الرحيل عن المدينة بقول الكناني : "وفي عشي ذلك اليوم المبارك كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة فيا له وداعا عجبا ذهلت له النفوس ارتياعا حتى طارت شعاعا ، واستشرت به النفوس التياعا حتى ذابت انصداعا ! وما ظنك

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير، ص ٣٧

(٢) إنعام زعل ،"صورة المرأة في أدب الرحلات من القرن الرابع الهجري إلى نهاية القرن الثامن الهجري ،الرؤيا والتشكيل ،ص ١٧٨

بموقف يناجى بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين ، وخاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ؟ إنه لموقف تنفطر له الأفئدة ، وتطيش بـــه الألبـــاب الثابتـــة المتئدة ، فوا أسفا وا أسفا ! كل يبوح لديه بأشواقه ، ولايجد بدا من فراقه ، فما يستطيع إلى الصبر سبيلا ولاتسمع في هول ذلك المقام إلا رنة وعويلا ، وكل بلسان الحال ينشد :

محبتي تقتضي مقامي وحالتي تقتضي الرحيلا

بوأنا الله بزيارة هذا النبي الكريم منزلة الكرامة وجعله شفيعا لنا يـــوم القيامة وأحلنا من فضله في جواره دار المقامة ، برحمته إنه غفور رحـــيم جواد كريم " (١).

فالحركة والمشاهد الحوارية بقسميها الداخلي والخارج ، تتوافر فـــي النص وتشع كما هذه النفوس التي فارقت هذا المكـــان العظـــيم ، الحـــوار الذاتي، بالتعبير عما تختلجه نفسه وتهوى المكوث به أكثر فتـــرة ممكنـــة ، فالحوار الذاتي يتلاءم مع الألفاظ ، ويتلاحم مع النفس ومع الغير ، فالألفاظ "ارتياعا ، انصداعا ، إلتياعا "فتجد الصيغ تتوازى والموسيقا تتعالى ، والألم والتحسر يحضر ، فتتكون البنية للنص وتتناسق "فوا أسفا وأســـفا " نـــداء تحسر وألم وتكرار له يضفي عليه تأكيد هذه المشاعر لهذا المفارق ، وحوار مع الغير كما في ألفاظه " لايجد ، لاتسمع سبيلا عويلا "ثم يعمق الجـــراح فتجد في الهول من شدة ترك المكان ، والمشهد الحركي باستمرار ويـــزداد جمالا بانتقاء بيت شعري متناسق الصدر والعجز " محبتي ، حالتي ، مقامي، الرحيلا تقتضي ، تقتضي " فتجد ألأسلوب متناســـق والحـــوار مـــع الـــذات

(١) ابن جبير ،رحلة ابن جبير ،ص ١٨

متواجد. فهو مشهد ونص مترابط من أوله ووسطه وآخره ، وفي الأخير تجد الدعاء للذات وللغير ، وصيغ المبالغة حاضرة فإن لم تحضر في هذا المشهد فمتى تحضر؟ ومن ذلك "شفيع ، غفور ، رحيم ، كريم "

ومن المشاهد التي أردنا تسليط الضوء عليها لما تصنعه من عون لمن يرد لمكة المباركة ، فيقول الكناني ، والتي عنونها "بالسرو المائرون " : " ومن لطيف صنع الله عزوجل ، لهم فيه اعتناء كريم منه سبحانه بحرمه الأمين ، أن قبائل من اليمن تعرف بالسرو ، وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة ، كأنها مضافة لسراة الرجال ، على ما أخبرني به فقيه من أهل اليمن يعرف بابن أبي الصيف ، فاشتق الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم بلادهم ، وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها ، يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام ، فيجمعون بين النية في العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها ، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز. فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة "[١]

فالمشاهد حوارية مع الغير بتعريف بهؤلاء الذين أحضروا الطعام في هذا المكان الأمين ، فتجد هذه الأطعمة بالحوارات مع أهل مكة يعتمدوا عليها طوال العام ، وتجد التنوع بما يحضرون والنية الصادقة منهم لمنفعة أهل هذا المكان المبارك ، فبنية النص مترابطة قدوم إلى مكان وإحضار أنواع كثيرة من الطعام وإحياء للتجارة ، فتجدهم ، يبيعونها بالجلود والعبايات وغيرها، فالنص مترابط بين أجزاءه بين بائع ومشترٍ وبين مكان

(١) ابن جبير ،رحلة ابن جبير ، ص ١١٠

مبارك وأناس جمعوا بين صنع الخير والعبادة ، وذكر الأطعمة فتجدها أطعمة رئيسة في الحياة فتدخر وينتفع بها وهي مطلب لقاصدي البيت العتيق ، ولأهله الذي كرمهم الله بهذا البلد الأمين .، فالحوار لم يكن طويلا بين السارد والشيخ إنما أخذ نبذة بسيطة عن هؤلاء "السرو"وحسن مقدمهم وتفاؤل من حولهم بمجيئهم ، وإخلاصهم النية بإحضار هذا الطعام لهذه الديار ، فالنص بأبعاده المتنوعة فيه ارتضاء للقادم والمقدوم له ، من مطلب للأجر والتبارك بالعبايات والجلود التي يصنعها أهل هذا المكان الطاهر ، وبالمقدوم له بإحضار شتى الأطعمة لهم وبيعها بما توفر .

د- خطاب الذات والآخر

في رحلة الكناني ، تجد خطاب الذات والآخر ، مرتبطان في كثير من الرحلات ، فهما يلتقيان في مشهد واحد، فيزداد تأصيل المشهد ومن ذلك ما قال الكناني :"وذلك أنا لما حللنا الإسكندرية في الشهر المؤرخ ، أولا عاينا مجتمعا من الناس عظيما بروزا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابهاوحولهم الطبول والأبواق ، فسألنا عن قصتهم ، فأخبرنا بأمر تتفطر له الأكباد إشفاقا وجزعا ، وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم من بحر القلزم ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر سمروا مراكبهم وأكملوا إنشاءها وتأليفها ودفعوها في البحروركبوها قاطعين بالحجاج ، وانتهوا إلى بحر النعم فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا ، وانتهوا إلى عيذاب فأخذوا فيها

مركبا كان يأتي بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضا في البر قافلة كبيرة تـــأتي من قوص إلى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحدا"(١)

فيحضر الذات في النص " حللنا ، عاينا ، سألنا " حاضرا وجليـــا بـــل شاهدا على ما يحدث والمشاعر والأحاسيس مترقبة ما الذي يراه وتساؤلات واستفسارات عديدة ، فلابد من الآخر وخطابه عما يحدث والأسباب ، ويقول الآخر" أخبرنا " ثم يبدأ بذكر أفعالهم فكأنها إفادة قبل عقابهم ، ومـــن ذلـــك "أنشاوا ، حصلوا ، أحرقوا ، أخذوا ، انتهوا ، قتلوا " فهنا تعداد للأفعال التي قاموا بها والأمور العظام التي ارتكبوها ، فالذات والآخر في هذا النص كأنه شاهد عيان على حدث يحصل الآن وعلى استرجاع من الآخر لمـــا حصـــل سابقا . وتجد في النص كلمات تدل على الحزن " تنفطر الأكباد ، إشـــفاقا ، جزعا " دلالة على تأثر الذات بصنيع هؤلاء ، وأن عملهم عظيمـــا شـــنيعا ، فالحزن قد بلغ منتهاه والتأثر قد زاد في النفس حتى أصابها بالجزع وفـــي النص تجد أجواء الحروب من أسرى وقتلى ، وأيضا ضرب الطبول والأبواق كل ذلك دلالة على أن الزمان الذي فيه خطاب الذات والآخر زمان فيه نزاع بين نصارى ومسلمين متمثلا بالحجاج ، فالمشاعر مختلجـــة عنـــد الـــذات وعقيدته وارتباطها مع المسلمين، والآخر يبـــرهن الجـــرم العظـــيم الـــذي ارتكبوه، فهناك تلاحم بالمعتقد بين الذات والآخر .

ومن ذلك أيضا ما ذكره الكناني ، عن "نصارى جبل لبنان " بقولـــه :" ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ، ويقولون : هـــؤلاء ممـــن

(١) ابن جبير ،رحلة ابن جبير ،ص٣٤

انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم ، وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة ، وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض"(١)

خطاب الذات والآخر ، في بنية السرد من خلال إبراز التعجب من النصارى وعملهم الجليل على اختلاف مذهب من سعوا لمساعدته والحرص على إبعاد المكروه لمن يمر بديارهم فأحسنوا للمار والإنسان ، مهما كانت ديانته ، ثم يأتي الارتباط الوثيق بين الذات والآخر في الإنقطاع لله عز وجل، فيحضر الذات هنا ويرى العدل هناك عند الآخر فتجده يثني على هذا الفعل ويصفه بالعجب ، ثم يدخل الذات في حديقة غناء فتجد المشاعر قد ازدانت والنفس اجتمع فيها جمال المكان وجمال التعامل مع اختلاف عقيدة مع الآخر إلا أن التعايش قائم وكل بدينه متمسك وسائر ، ثم يتمازج خطاب الذات مع الآخر"فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض "

فيصادق بين الذات والآخر البعيد من منطلق العقيدة والإنصاف .

وللذات والآخر حضوره في هذه الرحلة الشيقة لقارئها الدالة على الأماكن الشريفة، ومن ذلك "مدينة حران " فقال ابن جبير :" كفى بهذا البلد شرفا وفضلا أنه البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا ، إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وله بقبليها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك فيه عين جارية كان مأوى له ولسارة ، صلوات الله عليهما ، ومتعبدا لهما ، ببركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة مقرا للصالحين المتزهدين ، ومثابة للسائحين

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٩،٢٦٠

المتبتلين ، لقينا من أفرادهم الشيخ أبا البركات حيان بن عبد العزيز حذاء مسجده المنسوب إليه ، وهو يسكن منه في زاوية بناها في قبلته ، وتتصل بها في آخر الجانب زاوية لابنه عمر قد التزمها وأشبه طريقة أبيه فما ظلم وتعرفت منه شنشنة أعرفها من أخزم ، فوصلنا إلى الشيخ وهو قد نيف على الثمانين ، فصافحنا ودعا لنا وأمرنا بلقاء ابنه عمر المذكور ، فملنا إليه ولقيناه ودعا لنا ، ثم ودعناهما وانصرفنا مسرورين بلقاء رجلين من رجال الآخرة "[1] فالذات يحضر عن قرب وكثب لهذه الأماكن العظيمة التي يذكرها أنها محل إجلال لمشاعره الصادقة تجاهها وذلك ، لكونها تمثل عقيدته وانتماؤه لهذه السلسلة ، وهذه الأسماء التي يقدسها ويعرف علو شأنها ويتأدب معها لكونها مكان "لإبراهيم "عليه السلام الذي يحمل رمزا للمحبة والدعاء والسلام ، ويتعانق الذات مع الآخر بقوله" لقينا ، صافحنا ودعا لنا " فتجد الآخر يحضر وهو مواز لتبتل أهل هذه المدينة التي تعد مكان للسائح الديني ، والذات تجده يسترجع ما مر عليه في السابق بمعرفة "الشنشنة "ومدى إدراكه وتميزه وفطنته وربط لهجته بأبيه ، والآخر أضاف الكرم الذي يتميز بها أهل حران ، ثم يذكر ألآخر بأنهم من أهل الآخرة ، فيدل ذلك على عمق التدين والإعراض عن الدنيا ومشاغلها فهم عباد زهاد وفي مكان كان الخليل فيهم قد سكنه وشرفه ، والذات مع الآخر تبين السرور والبهجة التي جمعت بينهما ، فالمشاعر متداخلة بين الذات والآخر والصفاء هو عنوان اللقاء وقد يكون التدين والعقيدة التي تطابق فيها الذات والآخر هي السبب الرئيس في ذلك.

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ،ص ٢٢٠

ثانيا : بنية المكان

بنية المكان لها ارتباط وثيق بصاحب الرحلة، فهي المحرك لرصده والجاذب لعينه ، وهي التي تجعل السارد ، يغوص في الدقيق والجليل مما يرى من مشاهدات تستحق الوصول إليها والعناء من أجلها، فالمكان له دور رئيس في العناء والشقاوة والألم ، وعلى النقيض من ذلك فقد يكون مكانا استقرار وطمأنينة وانشراح للصدر وفراقه جلل لما وجد فيه من أنس وعواطف جياشة متعلقة بهذا المكان ، فالكل مكان ميزة ، إما باتساع وإما بقدسية ، وإما بطبيعة جاذبة ، أو بأهله الكرماء الأتقياء أو عكس ذلك، من سوء لقاء واستغلال للغرباء وإيذاء بالأقوال والأفعال وكبرياء ورياء وخداع .ولعناصر البنية المكانية من هذا الموضع وأهلها ومن قدم إليها علاقات تربط كل جزء بالآخر، وكل جزء بالكل ، فالمكان هو الهدف الأسمى للرحال، في البر والبحار للوصول إلى مراده ، سواء كان هذا المكان مقدسا عقديا لهذا السائر أو موطنا أو تجارة أو حب استطلاع ودراية، فيسير بالأهوال ويقطع الصعاب ليصل إلى المراد ، وما ابن جبير (الكناني) إلا من هؤلاء الذين ، يسرالله له السير وهوسبحانه مصرف الأمور وهو على كل شيء قدير وبعباده خبير بصير ، فجعل الأرض ذلولا ، والفلك تجري بريح مطمئنة أو مخيفة عاتية ليسير فيه ما يشاء من عباده ، والتفكر في بره وبحره وخلقه عبادة جليلة ، وزيادة لليقين وتعظيم للجليل فهو مصرف الدقيق والعظيم ، وكل ذلك عنده بقدر.

وسنتطرق للمكان من خلال ما يلي:

أ ـ المكان في البر

يقول الكناني، في" ذكر بعض أخبار الاسكندرية وآثارها " :"فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه ، حتى إنا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضا، ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبناءه فوقها وأعتق وأمتن ، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضا.

وعاينا فيها أيضا من سواري الرخام وألواحه كثرة وعلوا واتساعا وحسنا ما لايتخيل بالوهم حتى إنك تلفي في بعض الممرات بها سواري الرخام وألواحه كثرة وعلوا واتساعا وحسنا ما لا يتخيل بالوهم ، حتى إنك تلفي في بعض الممرات بها سواري يغص الجو بها صعودا لا يدرى ما معناها ولا لم كان أصل وضعها ، وذكر لنا أنه كان عليها في القديم مبان للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة في ذلك الزمان ، والله أعلم ويشبه ذلك للرصد ."[١]

تجد المكان فيه حسن وجمال وتناسق في البنيان واتساع في الطرقات وزيادة في لفت النظر لمشاهد عدة ترتوي من الجمال كما ارتوت من النيل ، فالانشراح والارتياح متلازمان في المكان فكل شيء جاذب وبالحضارة متأصل وساطع مبان عتيقة وأسواق مساوية لجمال المكان ، وتطور البناء حتى تحت الأرض تجد تلك الفخامة ولا تقل عن علوها فهي جميلة ساحرة

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ،ص١٤

وللمشاهد آسرة، والنيل منه يرتوى وللطبيعة جاذب وللمدينة مرفأ ، ففيه المكان يزدان جذبا للذاهب والآت ، ومن جمال المكان مافيه من مشاهد رخامية ، وصفت بالخيالية لبديع تصويرها وتناسق نقشها ، وعراقة هذه المدينة ، وهنا تجد السارد يتداخل مع أهلها لأجل المكان وسحره للناظر ، وإبداع أدخل في دائرة الوهم لما شوهد من دقة وارتقاء ، ثم يتبين أن هذا المكان يقطنه فلاسفة وعظام من ملوك ذلك الزمان ، فهنا يكمن ترابط النص بداية بفساحة المكان ومبان على الأرض وجوفها وسعة في المسير وأسواق لاتقل بهاء عما يحيط بها من جماليات في كل الجهات ونيل يرتوى ويستفاد منه ، ثم تبيين من أهلها أن من سكنها هم أناس من ذوي العلم والثراء وهم لهم الكلمة في ذلك العصر ، فالنص البنيوي مكتمل بعناصره مترابط بين أجزاءه .

ونختارمن رحلة الكناني " جدة " لنعرف عراقة المكان وحاله قبل قرون عدة ، فلنرتحل إلى جدة فيقول ، في "صفة جدة " : "وجدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها أخصاص ، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف ، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر ، وبهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة ، وأثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم ، وبها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة ، يذكر أنه كان منزل حواء أم البشر ، صلى الله عليه ، عند توجهها إلى مكة ، فبني ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته وفضله ، والله أعلم بذلك ، وفيها مسجد مبارك منسوب إلى عمر رضي الله عنه ومسجد آخر له ساريتان من خشب الآبنوس ينسب أيضا إليه ، رضي الله عنه ،

ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد ، رحمة الله عليه "[١] . فالمكان على البر وبجانب البحر فالعراقة بأول إطلالة على المدينة فالحجارة هي التي تستخدم في البناء في هذه البقعة وللأسطح فيها مكان للاستراحة من الأجواء الحارة ، فالجو قد يتحكم في طبيعة البناء ودلالة على ضعف الحال ، وقد يكون أجمل ما فيها تلك الفنادق في البناء فتجدها هي التي جذبت المشاهد في هذه المدينة، ثم يأتي إلى عناصر أخرى في المكان وهو مكان مقدسة للبشرية جمعاء ، فكيف لا يكون ذلك ، وهو مكان ومنزل "حواء " أم البشر ثم يربط المكان بالمتعقد ورفعته ، بذكر فضله على الخلق أجمع ، ويذكر مسجدا ينسب إلى عمر رضي الله عنه ، فيجدد لنا عراقة النص وارتباطه بشخصيات عظيمة قديمة ، ولهذا المكان حضارة تنبئ عن بداية البشر ، ويذكر عراقة سورها فالسور باق وهذه إشارات لزمان مندثر وبقاء مكانه إيضاح لأهل زمانه وتحصنهم بها ، فقد يشير إلى نزاعات أدت لبنائه وهدمه ، وفيه إلماحات تاريخية قد يكون هذا السور هو الفيصل بها ، فترابط عناصر النص واتساقه بداية ببناية بحجارة وإسهابا بتواجد عمق مقدس وذكر شخصيات مؤثرة ، وسور باق ، فنلحظ ترابط المكان وعناصره بعراقته القديمة وشخصياته العظيمة .

ومن إشراقات هذه الرحلة وتعدد الأمكنة العريقة التي رصدها الكناني والتي جعلنا عطشى لمعرفة ماضيها التليد ومكانها الذي جمع فيه القديم والحديث ، فمن ذلك ، قول الكناني بذكر " مدينة السلام بغداد ، حرسها الله تعالى " :" هذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية ، قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير،ص ٥٣

شهير اسمها ، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز العقلة ، والنظر إلى دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين ، فهي تردها ولاتظمأ وتتطلع منها في مرآة صقلية لا تصدأ ، والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينِشأ ، هو من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة ، ففتن الهوى ، إلا أن يعصم الله منها ، مخوفة "

أما المكان هنا مدينة السلام "بغداد " [١] ففي النص إبراز للمكان بعراقة وخلافة سابقة، وما لها من قيادة وريادة في زمان سابق ، فهي انطلاقة للدعاة ، فالمكان يتغير ويلبس ثوبه البالي لهذه المدينة العريقة ، فيصبح رسما والاسم رمزا ، فعناصر المكان ومحتواه يدل على مصائب حلت بمدينة السلام ، فالمشاهد ومن يريد أن يصف المكان لايجد شيء يستحق

الاهتمام ووضعه في دائرة ويضفي عليه مشهد يستأنس له بذكره ويمتع ناظره بالتدقيق بخوافيه فتأتي دجلة وتنقذ المكان من وحشة النوائب والآثار التي أصابت المكان بالوحشة والدمار ، فنهر هذه المدينة هوالحسن الذي يستحق الرصد ، فيدخل على النص البهجة والانشراح ووصفه بالعقد الذي أخرج العقدة من هذا المكان وأوجد للمكان الاطمئنان والاستكنان ، وأن وجود هذا النهر نعمة عظيمة للمكان ، فلا ظمأ يعتري هذا المكان ليخفف الآلم كما يخفف الماء هيجان النار ، ثم يتبع الحسن بالحسان ويذكر جمال

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير،ص١٩٣ ــ ١٩٤

النساء ، وعراقة هذا الجمال وشهرته بين الأمكنة جمعاء ، فعناصر المكـــان بدأ بعراقة المكان وانتهى بعراقة الجمال في العراق متمثلة ببغداد ، والسلام على مدينة السلام .فعناصر النص مترابطة سواء كان جميلا أو قبيحـــا ، أو كان يستحق الوقوف أو الإعراض فالتناسق بين عناصره موجودة ، والتدرج في وصف المكان ومشاهداته قائمة ، وإحضار الذائقة الأدبية للمكان الحسن حاضرة ، كما في تشبيهه "كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، أو العقد المنتظم بين لبتين " فتجد مشاعر الشاعر قد فاضت وبدجلة قد زادت ، ثم ذكر النساء الحسان ، فهناك ترابط بين العقد والنساء والجمال وكل ذلك بفعل المكـــان فاجتمع جمال المنظر بجمال النساء ، ثم يزرع السارد والواصـــف معتقـــده وخوفه من الافتنان بما رأى في ذلك المكان ، وطلب العصمة ممن يقدســـه في البر والبحار .

ب ـ المكان البحر

البحر عالم عجيب ، وأماكنه مخيفة مهيبة ، وأهواله عظيمة ، ومركبه ليس بالسهل ، فالمشاعر في تقلب والمسير فيه عسير وما هذه الرحلـــة إلا دليل عظيم على المخاطر التي تحيط به فالعقائد قد تتغير واليأس والجزع قد يحل بأول هبوب لريح غربية عاتية والقلوب تبلغ الحناجر ، فما ظنك صانع في ظلمات بعضها فوق بعض، والمكان قد يتبدل وسير الطريق قد يتحـــول ، وما رحلة الكناني أيضا إلا شاهدا على عصر مضى في هذا المكان .

وسندخل المغامرة مع مغامرة صاحبنا ، والتـــي عنونهـــا بـــــ"الرياح العاصفة الغربية " فيقول الكناني :" وفي النصف من ليلة الأحد الحادي عشر منه انقلبت الريح غربية ، وكشف النوء من الغرب ، وجاءت الريح عاصفة

فأخذت بنا جهة الشمال ، وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجه ، وماج مائجه ، فرمى بموج كالجبال، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمة تقلب الغصن الرطيب ، وكان كالسور علوا فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمي في وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب فلما جن الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الآذان غماغمه واستشرى عصوف الريح ، فحطت الشرع ، واقتصر على الدلاين الصغار دون أنصاف الصواري ، ووقع اليأس من الدنيا ، وودعنا الحياة بسلام، وجاءنا الموج من كل مكان ، وظننا أنا قد أحيط بنا، فيا لها من ليلة يشيب لها سود الذوائب ، مذكورة في ليالي الشوائب مقدمة في تعداد الحوادث والنوائب ونحن منها في مثل ليل (صول) طولاً فأصبحنا لم نكد ، فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا وجباله قد قامت أمامنا وكنا قد خلفناه عن يميننا فأسقطتنا الريح عن مجرانا ونحن نظن أنا قد جزناه ، فسقط في أيدينا وخالفنا المجرى المعهود الميمون وهو أن يكون البر المذكور منا يميناً في استقبال صقيلة، فاستسلمنا للقدر وتجرعنا غصص هذا الكدر وقلنا :

سيكون الذي قضي سخط العبد أو رضي

وفي ذلك انبسطت الشمس ، ولان البحر قليلا ، وصممنا نروم أخذ مرسى في البر المذكور إلى أن يقضي الله قضاءه وينفذ حكمه .[١]

المكان في وسط البحر والزمان في ليلا ، والريح الغربية قد أتت والآلم قد حلت فالوجهة المراد قد تبدلت ، و يحضر ألفاظ المغامرة وعدم الثبات في المكان "هاج هائجه ، ماج مائجه ، رمى كموج كالجبال " فتجد

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ،ص ٢٨٩

الوجوه قد ذهلت والموقف مهول والمشاعر قد استوقفت ، فاستمر الهول ليلا ونهار ، وأصبح المركب كالغصن الرطيب بين هذه الأمواج العالية ، ثم استمرت المعاناة وانتقلت إلى المكان (المركب) وفي الليل الآخر اشتد تلاطم الموج ودخل على المكان ، فالسارد رأى الأمور الجسام فالمكان قد يكون هو الوداع وآخر ساعة له في هذه الأهوال ، والمكان قد استنفر كل ماعنده " حطت الشرع ، الدلالين الصغار " فحالة المكان تستدعي عمل أي شيء لأجل بقاء ، أفراد هذا المكان ، وتحضر ألفاظ الكثرة بكثرة

"سود الذوائب ، الشوائب ، النوائب ، الحوادث " وتجد المحن مترابطة في الزمن ليلا ، ونهار ، وليلا ، ثم بعد ذلك تأتي ألفاظ الوداع للمكان والأحباب " اليأس ، ودعنا الحياة بسلام" عباراة مملوءة بمشاعر الفراق ، كهذا المركب المملوء بالماء والأهوال والنفس في جزوع وأتراح ، وأحيط بهم من كل مكان ، فلا نجاة ترجى ولاحياة تبقى ، وتزيد المأساة بتغير المكان إلى المجهول ، ويستحضر السارد عقيدته " القدر "فيدل على تمسكه بمعتقد وارتضاءه لذلك ، وهنا " القدر ، الكدر " تناغم في الوزن والأمر والمكان له الأثر كما في هذا البحر ، وسيحتضر السارد الشعر ويجعله مناسب للحال ومافيها من آلام ، ويكرر تمسكه بعقيدته التي تقدست بقلبه ، ويجعلها مؤنسا له وارتضاء بما حصل ، ثم يتبدل الحال من قنوط ويأس إلى فرح وانشراح ، فكربت المكان قد زالت " البحر "والهائج أصبح هادئا قليلا، ثم يرجع لنا السارد بتأصل عقيدته وارتباطه الوثيق بها في العسير واليسير وفي المكان الهائج والهادئ فالقدر وتصريفه وعقيدته ثابتة ، فالمكان أعطى ارتباط وثيق بعناصره من مطية وراكب وزمن وتطور في الأحداث والأهوال وعسر ثم يسر ومشقة وطمأنينة ويأس وجزع ثم فرح وانفراج ، وكل ذلك

بقدر ، كما أوضح لنا السارد ، والمشاعر حاضرة والأهوال متنوعة والهلاك عنوانها والبقاء في خطر ، وكل ذلك بقدرسخط العبد أورضي ، فمشاعره العقديه وإطراءه لها دلالة على عمق المشاعر وزرع الأمل في كل ألم .

ومما ذكر الكناني ، وأصبحنا بمهبطه مترقبين وبحاله مشفقين ، فيذكر لنا ، أهوال بحر فرعون ، بقوله: "وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور ، وهو الثامن عشر من يوليه ، ركبنا الجلبة للعبور إلى جدة، فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود الريح ومغيب النواتية فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء أقلعنا على بركة الله ، عز وجل ، وحسن عونه المأمول ، فكانت مدة المقام بعيذاب ، حاشا يوم الاثنين المذكور ، ثلاثة وعشرين يوما ، محتسبة عند الله عزوجل لشظف العيش وسوء الحال واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة ، وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش أشهى إلى النفس منه ، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله: ماء زعاق وجو كله لهب فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل إلى البيت العتيق ، زاده الله تشريفا وتكريما ، وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه ولاسيما في تلك البلدة الملعونة ، ومما لهج الناس بذكره قبائحها ، حتى يزعمون أن سليمان بن دواد على نبينا وعليه السلام ، كان اتخذها سجنا للعفارتة، أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة إلى بيته الحرام".[١]

فهنا المكان على ساحل البحر لهذه المدينة ، واسترجاع للمدة التي قضوا بها في هذا المكان وإحضار لمشاعر الألم التي جلبها لهم المكان من

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٤٦

كل جوانب ابتداء بقلة المؤنة وتأثر الجسد بالمكان وعدم مناسبته لحاله ، حتى الأساسيات في الحياة تجد فيها المرارة والأسى ، وعنصر الماء هو الأساس ، ثم يبين لنا أن المكان يفتقد الراحة ويدعو للهزل والمرض والمشقة لكل من أتى إليه ، ثم يربط المكان بالحجاج ، والأجر العظيم في الصبر بالمقام في هذا المكان ، فالمشاعر غاضبة وما لعنه لها إلا دليل على عظم الأذى وسوء المقام ، ثم يحضر من قال بأن المكان سجن للعفاريت ، في عهد سليمان عليه السلام ، فيستدل بذلك على عراقة المكان في الشؤم والعذاب ، فله من اسمه نصيب ، ثم يلجأ للمولى ويدعو له ولغيره من إراحتهم من هذا المكان الذي فيه أصناف العذاب "بعيذاب" وزاد من السوء جو المكان وطبيعته التي يتكون منها هذا المكان ، فالماء غير متوفر وممجوج والهواء حار يذيب الأجسام فالمكان اجتمع به أمرين تقوم عليه الحياة ويضرب المثل لها بالسوء فالبنية الجسدية قد هزلت بماء وشراب وهواء ، يجلب الجوع والعطش والسوء للنفس وما لعنه لها إلا من الخطر الذي أصاب الجسد ورأى فيها أن الظمأ أقرب للجسد من مائها، ولخصت المشاعر ، ببيت الشعر الذي أوجز في وصف الكدر وما حل بمن حل بهذا المكان فأمره في نكد ، ولكنه يرجع إلى معتقده الذي يتعلق به في كل بحر وسهل ، فيحضر الجزاء والأجر العظيم لمن صبر واحتسب ، ويذكر مكاننا آخر يستحق أن تصبر حتى تصل لما أردت ، ويناسب معتقد هؤلاء الذين صبروا على سوء المقام ، ويذكر المكان والهدف الأسمى الذي يستحق السير له على ما في الأمكنة التي تسبق هذا " البيت العظيم " زاده الله تشريفا وتعظيما ، فتلتقي مشاعر السارد مع حال هؤلاء بمكان آخر تطمئن

له النفوس ، ويحسن كل شيء يوصل ، ويذهب عناؤه، فما هذا المكـــان إلا عقبة لذاك المكان .

وأكمل الكناني المسير ، فيقول :" فتمادى سيرنا في البحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الأول المذكور ، ويوم الأربعاء بعده بـــريح فـــاترة المهب ، فلما كان العشاء الآخرة من ليلة الخميس ونحن قد استبشرنا برؤية الطير المحلقة من بر الحجاز ، لمع برق من جهة البر المذكور وهو جهـــة الشرق ، ثم أنشأ نوء أظلم له الأفق إلى أن كسا الآفاق كلها ، وهبت ريـــح شديدة صرفت المركب عن طريقه راجعا وراءه ، وتمادى عصوف الريـــاح واشتدت حلكة الظلمة وعمت الآفاق ، فلم ندر الجهة المقصودة منها ، إلـــى أن ظهر بعض النجوم فاستدل بها بعض الاستدلال وحط القلع إلـــى أســـفل الدقل ، وهو الصاري ، وأقمنا ليلتنا تلك في هول يؤذن باليأس ، وأرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة ، إلى أن أتـــى الله بـــالفرج مقترنـــا مـــع الصباح، فهدأ قياع الريح ، وأقشع الغيم وأصحت السماء ولاح لنا بر الحجاز على بعد لا نبصر منه إلا بعض جباله ، وهي شرق من جدة ، زعـــم ربـــان المركب ، وهو الرائس ، أن بين تلك الجبال التي لاحت لنا وبر جدة يومين ، والله يسهل لنا كل صعب وييسر لنا كل عسير بعزته وكرمه ."[١]

فالمكان بحر تسيره الريح ، فالريح فاترة والاستبشار للمشاعر حاضر وقرب المكان الآخر اتضح والمكان يدخل الطمأنينة لممتطيه ، فتغير المكـــان وأظلم وتحولت الريح وهي التي تتحكم بمكان المركب وتسيره كيفما شـــاءت لا كيفما شاء الرائس فالظلمة شديدة والضياع هو العنوان الواضح ، فالتجـــأ

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ،ص ٥٠

إلى مكان النجوم حتى يستدل الطريق ، فارتبط الزمان بالمكان بظلمة ومكان مهول وما سمي بحر فرعون إلا لأهواله ودلالة

على هلاك ورمز للغرق فاسترجع ما ذكر عن هذا المكـــان والأخطـــار التي وصفت به ، فأصبحت تلك الليلة معدودة باللحظة وفيها المشاعر جاءها اليأس والقنوط فالأمر عظيم والطريق مجهول ومن في المكـــان مهمـــوم ، وانقلبت الحال بعد هدوء الريح ، وذهاب السحاب ووضوح السماء ، فطمأنت المشاعر وازدانت العواطف ، وقربت المسافة ، ثم يذكر لنا السارد تعلقـــه وتمسكه بعقيدته في السراء والضراء ، وفي الظلمات وفي النور، فالمكـــان مهيب وعناصره مترابطة إما بريح هادئة تجلب الأمل والاسترخاء وإعطـــاء العنان للخيال والنفس للإبحار في التدبر بالمكان ، أو بريح شديدة توقظ الآلم وتذكر بالآهات وتبدأ بالنفس فتدخل اليأس وتعدها للرحيل في مكان سحيق ، والليل مهيب بلأهوال فكيف به وهو في أجواء عظام ، فالمكان بحرمتقلـــب وبتقلبه يتقلب من في داخله من مشاعر ويزرع الخوف والاطمئنان ويتســـيد الموقف ، ولكن العقيدة الراسخة ثابتة كثبات الجبال التي مروا بها

ج- المكان العجائبي في الرحلة

في رحلة الكناني تجد التنوع في كل شيء في البر والبحر وفي الناس وطباعهم وفي المباني العجيبة التي تتعجب من شكلها وارتفاعها وتكوينهـــا العظيم ، ومن ذلك يقول :"ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارهما العجيبـــة " ، "وفي ليلة المذكور بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة وهي أيضا إحدى عجائب الدنيا لما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأهل البيـــت رضوان الله عليهم ، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأوليـــاء ذوي

الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة ، وإنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته فمنها قبر ابن النبي صالح ، وقبر روبيل بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين ، وقبر آسية امرأة فرعون رضي الله عنها ، ومشاهدة أهل البيت رضي الله عنهم أجمعين ، مشاهدة أربعة عشر من الرجال ، وخمس من النساء ، وعلى كل واحد منها بناء حفل ، فهي بأسرها روضات بديعة الإتقان عجيبة البنيان ، قد وكل بها قومه يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقوامها في كل شهر "[١]

هذا المكان العجائبي المعروف بـ" القرافة "يعتبر من العجائب العظام ، وذلك لاعتماده على شخصيات مقدسة بعقائد متأصلة لها حضورها وتجليها للكثير من الخلق ومن تلك الشخصيات التي أضافت للمكان العجائبي الحظ في التدقيق في محتوى المكان "قبر ابن النبي صالح ــ وقبر روبيل بن يعقوب ، وقبر آسية امرأة فرعون " فالشخصيات أضافت للمكان العراقة والزيارة وكثرة الزوار حاضرة في النص ، كما في قوله "إنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته " وهذا دلالة على الازدحام في هذا المكان العجيب بما يحويه من قبور معظمة في قلوب من يزرها أو أناس يريدون رصد كل عجيب في مشاهداته ، فالمشاهدات كثر في هذا المكان والسارد تجتمع عليه المشاهد وتزدحم عليه العجائب وينتقي ما يرى أنه يستطيع الاقتراب منها أكثر، وهاهو يصور لنا شخصيات أخرى بقوله: "مشاهدة أربعة عشر من الرجال، وخمس من النساء " فالعدد كثير والشخصيات لها دلالة في هذا المكان بجذب من في المكان وجعل السارد ينصب تركيزه على كل ما حوله

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير،ص ٢٠

من مشاهدات تلفت الأنظار ، ثم ينتقل من الشخصيات التي في المكان إلى المكان والجماليات التي تحيط بالمكان ، فيرى من العجائب في الصنعة ما يستهويه الناظر ويسر له الخاطر فيحضر مشاعرها تجاهها ويرصد دقة البناء والإتقان ، فيتعجب من المكان وما يحيط بهذه الشخصيات ، فهناك ترابط بين جمال الشخصيات وجمال المكان ، فلم توضع هذه الأبنية العظيمة في هذا المكان العظيم إلا لعظمة هذه القبور ومن فيها ، ولم يكثر فيها الزوار إلا دلالة على عظم المكان ومن في المكان من مشاهدات وشخصيات فتجد النص يترابط ترابطا يؤصل للمكان عراقته ولما في داخله من مكانة عند من يزوره ويحرص على رصد ما فيها من إبداع وإتقان واهتمام للرقي بالمكان من أصحاب هذا المكان ، حتى الموضع أصبح مشهورا بقوله معروفا ، فالمشاهد المتنوعة من شخصيات وإبداع في الإعمار أضفت على المكان العجائب التي يحرص عليها كثير من أهل الزمان وفي هذا المكان دلالة واضحة على عراقته وارتباطه الوثيق بحضارة عظيمة ، فبقي هذا المكان شاهد على ذلك العصر ، فمشاعر السارد متعجبة من المكان وحريصة على معرفة دقيق المكان وما يحمله من علامات تدل على أهل ذلك المكان وكيف صنعوا العجيب والإبداع في ذلك المكان ، فحري أن تكون مشاعره متلهفة لمعرفة العجيب الذي جعل الخلق تزوره ، وتكتظ حوله ، وقد يدخل هذه العجائب في النص الاتساق بين عناصره، ويبين أن المكان التقاء في العجائب للسارد والزائر ، وهو مكان خصب لإثراء رصد العجائب في هذا المكان المشتهر "بالقرافة " فاجتمع في المكان شخصيات مقدسة لمن انتسب لها في عقيدته، ومن عظمها في كتبه ، ورأى فيها خيرا ، لأهل هذا المكان ، فأصبحت مقدسة ، وقد طول مقام المكان، هو من أضاف العظمة

والإعجاب ، فيكف أبدعوا في ذلك الزمان وبقي المكان دالا على علو شأنهم وارتفاع منزلتهم ، في قرون عدة ، وما المكان إلا صانع للعجائب وجاذب للمشاهد ، وعلامة يهتدى في تلك البقعة التي يكون فيها ، فيصنع لها القيمة ويلبسها لباس الشهرة وما عجائبها إلا أكبر جاذب لها.

ومن الأماكن العجائبية في هذه الرحلة ، المتنوعة المشاهد والأماكن وما فيها من غرابة وعجب ، ومن ذلك مدينة إخميم ، وهي من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقي النيل فيقول الكناني :" وبهذه المدينة المذكورة آثار ومصانع من بنيان القبط وكنائس معمورة إلى الآن بالمعاهدين من نصارى القبط ، ومن أعظم الهياكل المتحدث بغرائبها في الدنيا هيكل عظيم في شرقي المدينة المذكورة وتحت سورها ، طوله مئتا ذراع وعشرون ذراعا ، وسعته مئة وستون ذراعا ، يعرف عند أهل هذه الجهة بالبربا ، وكذلك يعرف كل هيكل عندهم وكل مصنع قديم ، قد قام هذا الهيكل العظيم على أربعين سارية ، حاشا حيطانه ، دور كل سارية منها خمسون شبرا ، وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبرا ، ورؤسها في نهاية من العظم والإتقان قد نحتت نحتا غريبا فجاءت مركنة بديعة الشكل كأن الخراطين تناولوها ، وهي كلها مرقشة بأنواع الأصبغة اللازوردية وسواها ، والسواري كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها ، وقد انتصب على رأس كل سارية منها إلى رأس صاحبتها التي تليها لوح عظيم من الحجر المنحوت ، من أعظمها ما كلنا فيه ستة وخمسن شبرا طولا وعشرة أشبار عرضا وثمانية أشبار ارتفاعا ، وسقف هذا الهيكل كله من ألواح الحجارة المنتظمة ببديع الإلصاق ، فجاءت كأنها فرش واحد ، وقد انتظمت جميعه التصاوير

البديعة والأصبغة الغريبة ، حتى يخيل للناظر فيها أنها سقف من الخشب المنقوش ."[١]

المكان ، إخميم وفيها هيكل عظيم يجذب للمكان البعيد ويجعل السارد بتكوينه وحسن وعظمه عجيب ، فالمكان بهذا الهيكل قد اشتهر وبجودة بنائه وعجب من أتقنه وفي الغرابة والعجائب صوره ضخامة على " أربعين ساريه " اتكأ عليها فالمكان يزدان بضخامة هذا الهيكل وهذا المشهد يعطي المكان الضخامة والسارد الذهول في عظم تكوين ما يرى وأعداد ما يحمل عليه هذا الهيكل وارتفاع يلفت الأنظار والمشاعر فيه تذهل من تكوين هذا المكان وإحضار للخيال على من أبدع في هذا المكان واستطاع بناء العظام ، ولفت الأنظار ببناء يختلج النفس مما يرى ويجعلها راصدة لما ترى بدقة وأناة لأنه قد لا يتكرر ما يرى من إبداع ، فيرى التنسيق الجميل للمكان ، وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبرا ، فالسارد يأخذ مقاسات المكان كأنه يريد أن يصنع مكانا له مثل هذا المكان، فالأشبار جاهزة للقياس ، لينحت في ذاكرته هذا المكان ، كما في هذا النحت الذي يبهج المكان وما تزال المشاعر بذهول وازدياد ، والعين تجدها مدققة في هذا الموضع لما تراه من صنعة عجيبة ونادرة فريدة، فالمكان كله تصميمات ونقوش متكاملة متناسقة محافظة على عراقة هذا الهيكل الذي يعد في زمانه من عجائب مارآه السارد في دنياه ، فعناصر المكان مترابطة متأنقة يجمعها الجمال والنحت والنقش والدقة في هندسة ، وترتيب أبعاده والمحافظة على مقاساته ، أما السقف "أحجار منتظمة ، كأنها فرش واحد" فترابط المكان بعظم هيكل وأربعين سارية ، وحيطان زادت من روعة المكان بنقوش ونحوت واكتمل المكان

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير، ص ٣٦

بسقف مرصوص ، فالإبداع في المكان في أي مشهد تراه يمينا أو شمالا أوفوقا أو تحتا ، فالمكان يرى السارد أنه استحق الإعجاب وملك المقلة وملأها باقتدار ، والهندسة في المكان لها حضورها المشرق فما تقسيماتها وتنوع نقشها ونحتها وصف سقفها وبعد الأشبار بعضها عن بعض إلا دلالة على ذلك ، فالمكان عجائبي بجميع جسده ، هذا الجسد يمتاز بالقوة والتماسك وأكملها بالجمال والجذب للمشاهد في زواياه جميعه ببنية مكانية متناسقة متجاورة ، وقد غطى الحسن والإبهار المكان.

ومن العجائب التي رصدها لنا الكناني ، وهو البيت الحرام والذي أعطاه وصفا دقيقا ، وأسهب في المكان بالإجلال ، ورصد كل ما شاهده ، ومن ذلك قوله :" ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى به، أنه لا يخلو من الطائفتين ساعة من النهار ولا وقتا من الليل ، فلا تجد من يخبر أنه رآه دون طائف به ، فسبحان من كرمه وعظمه وخلد له التشريف إلى يوم القيامة ."[١]

فهنا المكان يتعجب منه السارد بحركة من في المكان التي لا تتوقف ليلا ونهار ، وينسب ذلك للمولى عز وجل فهو من أعطى هذا المكان المزية واعتنى به ، وأعطاه العلو على غيره من الأمكنة ، وتجد من تواجد في المكان شاهد ذلك وأقر ، فكثر من تعجب من ذلك ومن أبحر بمشاعره الصادقة ، تجاه هذا المكان وجد أنه مكان معظم من رب العز والجلال ، فاكتسب المكان تعظيما بتكريم الإله له ، فالتطابق في المشاعر لمن تواجد في هذا المكان ، والاستمرار في العناية بهذه البقعة المباركة إلى يوم

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٧٦

القيامة، فالمكان ارتبط بعظيم وهو حافظ عليم حكيم ، فالبنية المكانية مترابطة العناصر فمن سارد ومسرود له ومن ارتباط بخالق هذا المكان والذي خصه بالتشريف والعناية ، فالمكان عظيم والحركة واستمرارها من العجائب التي يفطن لها ويستدل بها على تعظيم وتشريف لهذا المكان ، واعتناء تجاوز من في المكان ، ومن في الأرض أجمعين ، ثم ينسب ذلك لله سبحانه ، فمشاعر التبجيل والمحبة اشترك فيها من في المكان ، وتطابق التقديس له جليا وواضحا في النص وبنيته ، وتلاحم أطرافه بالتركيز على الطواف وكثرة زواره وقاصديه ومن يطوف حول هذا المكان فبه اتضح عظم وقدر هذا المكان وتخصيصه بالطواف بلا توقف ، فدلالة على أنها بقعة حبيت وخصت بخير، فبنية المكان وربطه برب السموات والأرض أعطاه مكان تشريف وتبجيل .

الفصل الثالث

عناصر السرد

- الراوي
- المروي له
- الصيغة (التبئير)

١ ـ الراوي :

الراوي ، وهو الشخص الذي يقوم بالسرد ، والذي يكون شاخصا في السرد ، وهناك على الأقل سارد واحد لكل سرد مماثل في مستوى الحكي نفسه مع المسرود له الذي يتلقى كلامه "[١] ، سنبدأ بالبحر لاشتياقنا في الإبحار مع أديب مبدع في البر ، فما هو حاله البحر وسوف نبحر مع ابن جبير في البحر لنغوص على السارد في بيئته البحرية ، يقول ابن جبير : "وطرأ علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم ، عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى في الحين من تلقاء البر ، فأخرجنا عنه ، والحمد لله على ذلك ، وقام علينا نوع هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور ، فبقينا مترددين بسببه حول برّ سردانية إلى يوم الأربعاء بعده ، فأطلع الله علينا ــ في حال الوحشة وانغلاق الجهات ــ بالنوء فلا نميز شرقا من غرب ، مركبا للروم قصدنا إلى أن حاذانا ، فسئل عن مقصده ، فأخبر أنه يريد جزيرة صقلية " .[٢]

إننا إزاء نص سردي بحري ، والراوي ينقل لنا الحدث كما هو ، وهو هنا يقوم بدور : "الراوي العليم الذي يوصف بأنه يمتلك قدرة غير محدودة لكسب الأبعاد الداخلية والخارجية للشخصيات "[٣] ، والرؤية التي انتهجها الراوي رؤية خارجية .ويحضر الراوي هنا إيمانه العميق بالله عزوجل وأنه مصرف هذا البحر (والله الميسر لارب سواه) وإذا نظرنا إلى نص (برّي) لنقارن بين النصين فها هو في الإسكندرية :

---

(١) جيرالد برنس ، المصطلح السردي ، معجم مصطلحات ص ١٥٨

(٢) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٩

(٣) عبد الله إبراهيم ، المتخيل السردي ، المركز الثقافي العربي ، ص ١١٩

" فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه ، حتى أننا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضا ، ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها ، واعتق وأمتن ، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضا ، وعاينا فيها أيضا من سواري الرخام وألواحه كثرة وعلوا واتساعا وحسنا ما لا يتخيل بالوهم ، حتى إنك تلفي في بعض الممرات بها سواري يغص الجو بها صعودا لا يدرى ما معناها ولا لم كان أصل وضعها ، وذكر لنا أنه كان عليها في القديم مباني الفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة في ذلك الزمان والله أعلم" .[١]

والراوي هنا استخدم الوضعية الثانية من الوضعيات التي ميزها (ستانزيل) وهي وضعية ضمير المتكلم ، " حيث يتم السرد بضمير المتكلم حسب وجهة نظر الشخصية "[٢] ، ووظيفة الراوي في الحالين هي الوظيفة السردية إحدى الوظائف التي نص عليها (جيرارجينيت) حيث قسم وظائف السارد إلى خمس وظائف ، الوظيفة السردية ووظيفة التوجيه ووظيفة التواصل ووظيفة الشهادة والوظيفة الأيدلوجية [٣].

ويقول ابن جبير: وفي عشي ذلك اليوم المبارك كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة فيا له وداعا عجبا ذهلت له النفوس ارتياعا حتى

---

(١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٩

(٢) جيرار جينت وآخرون ، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير ،ط ١ ،منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي ، الدار البيضاء ،١٩٨٩ ، ص ١١٢

(٣) المرجع نفسه ،ص ١٠١

طارت شعاعا، واستشرت به النفوس التياعا حتى ذابت انصداعا ! وما ظنك بموقف يناجى بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين، وخاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ؟ إنه لموقف تنفطر له الأفئدة، وتطيش بـــه الألبـــاب الثابتـــة المتئدة ، فوا أسفا وا أسفا ! كل يبوح لديه بأشواقه، ولايجد بدا من فراقه ، فما يستطيع إلى الصبر سبيلا ولاتسمع في هول ذلك المقام إلا رنة وعويلا ، وكل بلسان الحال ينشد :

محبتي تقتضي مقامي وحالتي تقتضي الرحيلا

بوأنا الله بزيارة هذا النبي الكريم منزلة الكرامة وجعله شفيعا لنا يـــوم القيامة وأحلنا من فضله في جواره دار المقامة ، برحمته إنه غفور رحـــيم جواد كريم " [١]

فالسارد هنا عليم بما يسرد وواعيا وموثوقا به وكـــذلك الشخصـــيات المسرود لها فالجميع يعاني الرحيل ، فتجده يحضر ثقافته الغنية بل المليئـــة الصادقة بمشعر جياشة .

أما في البحر وآلامه العظام ، فيقول " وفي النصف من ليلـــة الأحـــد الحادي عشر منه انقلبت الريح غربية ، وكشف النوء من الغرب ، وجاءت الريح عاصفة فأخذت بنا جهة الشمال ، وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجه ، وماج مائجه ، فرمى بموج كالجبال، يصـــدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمة تقلب الغصن الرطيب ، وكان كالسور علوا فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمي في وسطه بشآبيب كالوابل المنســـكب

(١) ابن جبير ،رحلة ابن جبير ،ص ١٨٠ ،١٨١

فلما جن الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الآذان غماغمه واستشرى عصوف الريح ، فحطت الشرع ، واقتصر على الدلاين الصغار دون أنصاف الصواري، ووقع اليأس من الدنيا ، وودعنا الحياة بسلام، وجاءنا الموج من كل مكان ، وظننا أنا قد أحيط بنا، فيا لها من ليلة يشيب لها سود الذوائب ، مذكورة في ليالي الشوائب مقدمة في تعداد الحوادث والنوائب ونحن منها في مثل ليل (صول) طولاً فأصبحنا لم نكد ، فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا وجباله قد قامت أمامنا وكنا قد خلفناه عن يميننا فأسقطتنا الريح عن مجرانا ونحن نظن أنا قد جزناه ، فسقط في أيدينا وخالفنا المجرى المعهود الميمون وهو أن يكون البر المذكور منا يميناً في استقبال صقيلة، فاستسلمنا للقدر وتجرعنا غصص هذا الكدر وقلنا:

سيكون الذي قضي سخط العبد أو رضي[١]

فالسارد جمع بين الرؤية الخارجية والداخلية، وهو عليم بالريح التي بأمر الله تسير فالريح الغربية ريح مضرة بل قد تكون نهاية رحلة هذا المركب، فتجد ابن جبير يستحضر ألفاظ الوداع ويقتبس من القرآن والبلاغة في نسجه والرعب يحيط به من كل مكان " وودعنا الحياة بسلام " فيطمئن نفسه بأنه على الإسلام. يعلق الدكتور منجد مصطفى بهجت فيقول : " إن ريشة ابن جبير تصور لنا لوحة تملأ القلب هلعا ، والأوصال فزعا ، حتى يخال القارئ نفسه في وسط البحر لا يكاد يلتقط أنفاسه ، ويوشك أن يشخص لنا صورة كتلك التي تشاهدها على رقوق لا يكاد يلتقط أنفاسه ، ويوشك أن يشخص لنا صورة كتلك التي تشاهدها على رقوق الصور

(١) ابن جبير ٩٧

الضوئية (السينما) ، ولا سيما حين يستعمل الألفاظ المعبرة عن صوت اضطراب البحر "[١]

٢ ـ المروي له:

وتعريفه هو : " الشخص الذي يسرد له ، والمتواضع أو المنطبع في السرد ، وهناك على الأقل (واحد أو أكثر يجري إبرازه ظاهريا) مسرود له لكل سرد يقع في مستوى الحكي للسارد نفسه الذي يوجه الكلام له أو لها ، وفي سرد ما يمكن أن يكون هناك عدة مسرودين لهم كل واحد منهم يوجه له الكلام بالتناوب من سارد واحد ، أو سارد مختلف " [٢]

فمن خلال قراءتنا لسرد ابن جبير في رحلته البحرية، يتنوع المسرود له أو ما يسمى (المروي له) ، ويأتي بأشكال وأنواع متعددة :

النوع الأول :**المروي له رجل مؤمن** :

فهو في هذا النص عند وصفه لمكة يقول : "مكة شرفها الله ، كلها مشهد كريم كفاها شرفا ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم وما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم وأنها حرم الله وأمنه ، وكفاها أنها منشأ النبي صلى الله عليه وسلم، الذي آثره الله بالتشريف والتكريم وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم ، فهي مبدأ نزول الوحي والتنزيل وأول مهبط الروح الأمين جبريل ، وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الأكرمين وهي أيضا مسقط رؤوس جماعة من الصحابة القرشيين المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين

---

(١) ديوان الرحالة ابن جبير ، تحقيق : منجد مصطفى بهجت ، ط ١ ، دار الرفاعي ، الرياض، ١٤١٩ هـ ، ص ٥١

(٢) جيرالد برنس ، المصطلح السردي ، معجم مصطلحات ص ١٤٢

ونجوما للمهتدين "[١].فالمسرود له إنسان يقدس هذا المكان ويؤمن بالأنبياء جميعا، وموقنا إيقانا تاما بنزول الوحي على سيد الأولين والآخرين عليهم أفضل الصلوات وأتم التسليم ، ومؤمن بأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم تكملة لرسالة الرسل قبله، فالزاوية التي ينظر منها السارد للمسرود له والتبئير في نقاوة عقيدة المسرود له وأنه على هدي الأنبياء والصالحين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

النوع الثاني : المروي له رسام :

ويطل علينا السارد بكون المسرود له ، مغرما وعارفا بالنحت فيقول ابن جبير : "ويقابل الميزاب في وسط الحجر وفي نصف جداره الرخامي رخامة قد نقشت أبدع نقش وحفت بها طرة منقوشة نقشا مكحلا عجيبا ، فيه مكتوب : مما أمر بعمله عبدالله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، وذلك في سنة ست وسبعون وخمس مئة ، والميزاب في أعلى الصفح الذي يلي الحجر المذكور ، وهو من صفر مذهب ، قد خرج إلى الحجر بمقدار أربع أذرع ، وسعته مقدار شبر ، وهذا الموضع تحت الميزاب هو أيضا مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى ، وكذلك الركن اليماني ويسمى المستجار ما يليه ، وهذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامي ، وتحت الميزاب في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسماعيل صلى الله عليه وسلم ، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب تتصل بها رخامة خضراء مستديرة ، وكلتاهما غريبة المنظر فيهما نكت تنفتح عن لونها إلى الصفرة قليلا كأنها تجزيع ، وهي أشبه

(١) ابن جبير ص ٩١

الأشياء بالنكت التي تبقى في البيدق [١] من حل الذهب فيه" [٢] ويظهر لنا المسرود له بثوب آخر مختلف حيث المعرفة التامة بدقائق الرسم والنحت وإتقان المقاسات ودقتها علاوة على جودة عملها ، وجعلها للأنظار جاذبة ولغيرها صارفة ، فكيف لا تكون كذلك وهي بأمر الخليفة ، فلا يقوم بعملها إلا من شهد له بجودة هذا الفن ، فالمكان عظيم ولابد له من نقش يليق بكبرياء هذا المكان المقدس فالتبئير يركز على إتقان هذا النقاش ووضعها في مكان بارز حتى يدقق كل من زار هذا الحرم المقدس الثقافة .

النوع الثالث : **المروي له خبير بأمور البحار** :

ثم هاهو المروي له يخرج لنا بثوب آخر ، فهو خبير بشؤون البحر ودقائق أمور البحارة يقول " وترددت علينا الريح الغربية فقصفت (قريّة)[٣] الصاري المعروف بـ (الأردمون) وألقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها الشراع ، وعصم الله من وقعها في المركب لأنها كانت تشبه الصواري عظما وضخامة ، تبادر البحريون إليها ، وحط شراع الصاري الكبير ، وعطل المركب من جريه ، وصيح بالحريين الملازمين لـ (العشاري)[٤] المرتبط بالمركب فقصدو إلى نصف الخشبة الواقعة في البحر " [٥] فهذه دقائق وخفايا لا يخاطب بها إلا خبير بأمور ودقائق البحارة . الثقافة فهو يخاطب قارئا عارفا بأحوال الطقس وهبوب الرياح ، فيقول : "وفي مهب

---

(١) البيدق : البوتقة

(٢) المرجع السابق ،٩١

(٣) القريـّة : عود الشراع الذ يجعل في عرضه من أعلاه

(٤) العشاري : زورق النجاة

(٥) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٥

الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا في فصلي الربيع والخريف ، والسفر لا يكون إلا فيهما ، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا في هذه الفصلين ، والسفر في الفصل الربيعي من نصف إبريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر مايه "[١] فمن الواضح أن المسرود له خبير باتجاهات الريح وأيامها .

النوع الرابع : **المروي له رجل خبير** :

تتغير لغة السارد ابن جبير عندما يصف لنا أهوال البحر فترتفع العبارة ، حيث يقول : "وكشف النوء من المغرب ، وجاءت الريح عاصفة فأخذت بنا جهة الشمال ، وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجه ، وماج مائجه ، فرمى بموج كالجبال ، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه تقلب الغصن الرطيب ، وكان كالسور علوا ، فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمي في وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب ، فلما جن الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الآذان غماغمه ، واستشرى عصوف الريح"[٢] فمن الملاحظ أن المسرود له قد تغير ، فمع ضخامة الحدث وعظم المصاب وهول الموقف ، يجب أن يكون المسرود له على مستوى من الفهم والإدراك ليستوعب ضخامة الفاجعة التي تمر بالمركب وأهله .

النوع الخامس : **المروي له طالب علم** :

ابن جبير ينوع في المسرود له، ويختار من أصحاب الهمم ، ومن أغرم بالعلماء فيقول : " ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٤
(٢) المرجع نفسه ، ص٢٨٩

الفقيه ، الإمام الأوحد جمال الدين أبي الفضل بن علي الجوزي ، بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي ، وهو يجلس به كل يوم سبت ، فشاهدنا رجل ليس من عمرو ولا زيد وفي جوف الفرا كل الصيد ، آية الزمان ، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العلية ، إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة ، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر ، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر ، فأما نظمه فرضي الطباع ، مهياري[١] الانطباع ، وأما نثره فيصدع بسحر البيان ، ويعطل المثل بقس وسحبان "[٢]

فالمسرود له طالب علم يبحث عما يروي عطشه وينهل علمه الزاخر ، فيصطاد الكنوز ويقيد كل جليل جديد ودقيق عميق ، فتجد السارد يبين للمسرود له بتبئير بديع مناسب لشيخ جليل بل فضله على كل من يوازيه بالتعليم ، والمسرود له قد علم فضله وحصله على مجالسته وملازمته .

المروي له من قبيلة ربيعة (شمر) وبكر:

فالمروي له من قبائل العرب التي اشتهرت بالكرم والإحسان للمار والجار فيقول ابن جبير ، عندما ذكر مدينة حران ، كلأها الله "وبهذه البلدة

---

(١) مهياري الحاذق

(٢) ابن جبير ، رحلة ابن جبير،ص ١٩٦،١٩٧

كثير من أهل الخير وأهلها هينون معتدلون ، محبون للغرباء مؤثرون للغرباء مؤثرون للفقراء ، وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة إلى الشام على هذا السبيل من حب الغرباء وإكرام الفقراء ، وأهل قراها كذلك ، فما يحتاج الفقراء الصعاليك زادا، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبل عجيب والله ينفعهم بما هم عليه ، وأما عبادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم فأكثر من أن يقيدهم الإحصاء والله ينفع المسلمين ببركاتهم وصوالح دعواتهم بمنه وكرمه"[١]فهنا يتجلى تاريخ متأصل لربيعة ، وبكر وتبيين تاريخها المجيد والديار التي تقطنها وامتدادها ، فهنا يغوص في عمق التاريخ والمكان.

وهكذا يتنوع المروي له فمن عاشق للعلم بكلمات عذبه ، فيخاطبه بالسجع والكلمات التي تفيض رونقا وبهاء وتجعله يحرص ملازمة هذا الشيخ لعلوه واتساع مداركه، وتارة يكون المسرود له رجل بحر ، فيتغير الخطاب ويأتي له بما يلامس أحاسيسه ومشاعره وذلك بوصف دقائق مهنة البحارين وخفايا أسرار السفن ، فيرسم للمروي له خفايا السفينة ودقائق صنعها ومشاكلها وعلاج تلك المشاكل ، وأسماء أجزاء السفينة ، والرياح وهبوبها وعواصفها والمحمود من الرياح وغير المحمود منها ، ويأتي السارد الديار فيبين أجمل ما فيها والمسرود له يتتبع عراقة المكان وعراقة من سكنه وامتداد أهله وجذور أجداده ومالهم من مآثر تذكر فتشكر . فالمسرود له مرجع لمن أراد الإثراء المعجمي ، والتاريخ للمدن التي وصفها والجغرافيا وما قام به من حساب للأميال ومن أراد أن يستل ريشته في رسم أونحت بوصف مبهر كأنه قد حمل مترا يقيسه ومنقلة يحدد زواياه ، ومن

(١) رحلة ابن جبير ، ص٢٢٠٩

أراد معرفة مدن المسلمين حرسها الله ، ومدن الإفرنجة دمرها الله ، كما قال ابن جبير ذلك كثيرا، وينير للمسرود له معرفة عقائد تلك الديار وطبعاهم التي بعضها إلى الآن تتحلى بها ، فما أجمل الإبحار لمعرفة الأخبار والديار فالكل طالب في معرفة أهوال البحر ومعرفة المدن العريقة فليستنير بهذه الرحلة المجيدة . وهكذا يتنوع المسرود له ، فتارة يكون مؤمنا موحدا ، مطابقا للسارد في عقيدته ، وتارة أخرى يكون المسرود له صاحب إبداع برسم ونحت ، فلغة السارد واصفة مفيدة لما يدور في البحار والديار .

٣ ـ الصيغة (التبئير):

التبئير هو : "المنظور الذي من خلاله تعرض الوقائع والمواقف المسرودة ، الوضع التصوري أو الإدراكي الذي يتم وفقا له التعبير عنها ، وحينما يتغير هذا الوضع أو حين يصعب تحديده فإن السرد يوصف بأنه تبئيره في مستوى الصفر"[١]، فعلى هذا فالتبئير في سرد ابن جبير يكاد يكون أحيانا في مستوى الصفر ، وحسب التقسيم الذي قسمه (بروك ووارين) حيث قسم إلى أربعة مواقف سردية ، الأول منها (الشخص الأول) وهو : شخصية تتحدث عن قصتها[٢] ، فالتبئير في سرد ابن جبير من هذا النوع ، فهو يتكلم عن نفسه ومن زاويته .

فعندما ننظر في النصين السرديين إلى التبئير أو زاوية الرؤية التي يعرفها (بوث) بقوله : " إننا متفقون جميعا على أن زاوية الرؤية هي بمعنى من المعاني مسألة تقنية ووسيلة من الوسائل لبلوغ غايات

(١) جيرالد برنس ، المصطلح السردي ، ص ٨٧
(٢) المرجع نفسه ، ص ٨٩

طموحه"[١] ، فإننا نجد الفرق واضحا وجليا ، فهو في النص السردي البحري يعمل جاهدا لرسم حالة الخوف والذعر وذلك برسم أسباب عوامل الخوف والذعر ، فيرصف مجموعة من الكلمات التي تعطي دلالة قوية في رسم المشهد ، فالبيئة الزمانية الليل ، وصرح بكلمة هول عظيم استباقا للحدث ، ويواصل السارد رسم اللوحة فيدخل كلمة (الريح) ثم كلمة (النوء) ثم كلمة (هال له البحر) ليكتمل مشهد الشدة التي وقعوا فيها ، ثم تنفرج الحالة عن مركب للروم استعانوا به في الخروج من المأزق .

عندما نعود مرة أخرى إلى النص سنجد أن السارد يبئر مبدأ الالتجاء إلى الله واللوذ بجنابه والخبوت إليه ، وذلك بتكرار هذا المفهوم أكثر من مرة ، حيث ورد في هذا المقطع خمس مرات ، وفي كل مرة نجده يلقط لنا هذا المفهوم من زاوية مختلفة ، ففي المرة الأولى قال : " عصم الله منه بريح " ثم قال ثانية : " أرسلها الله تعالى " ثم ختم الجملة بالحمد والثناء على الله : " الحمد لله على ذلك " ، وفي المرة الرابعة لما جاء مشهد مركب الروم ، نسب ذلك إلى الله سبحانه وتعالى فقال : " فأطلع الله علينا " ، وخامسا يقول وقد هدأت روحه واطمأنت أنفاسه : " والله الميسر لا رب سواه " ليعطي للمروي له صورة أنه يذكر الله في السراء والضراء ، والعسر واليسر .

فهذا جليا وواضحا في السرد والالتجاء والدعاء مرتبط بالسرد البحري فإننا نفتقده في السرد البري ، فلا نجد هذا التبئير في المشهد أثناء تجوله في الإسكندرية ، فهاهو مطمئن الخاطر ، هادئ النفس ، مرتاح البال ،

(١) حميد لحميداني ، بنية النص السردي ، ص ٤٦

فيُخرج لنا عاديا كأي كاتب تاريخي ، فليس ثمة احتفال بالبيئة الزمانية ولا المكانية ، بل إن المشاهد تتوالى وفي حين تتداخل ، وليس ثمة ما يشد القارئ أو يدهشه ، بل أنت تقرأ كتابا تاريخيا لكاتب تاريخي ، يرصد الأحداث دون مشاعر ، فهو يصف مباني الإسكندرية واتساع البلد ومسالكه ومبانيه وقِدم البنايات والأسواق ، ثم ينزل تحت الأرض ليصور لنا ما بُني تحت الأرض ، ويصفه بالعتاقة والمتانة ، ونهر النيل الذي يمر بها ، ثم يقفز إلى سواري الرخام وألواحه العالية السامية وسبب بنايتها .

وبناء على تقسيم تودوروف السارد في عملية التبئير إلى ثلاثة مستويات : السارد يعرف أكثر من الشخصية ، السارد يعرف ما تعرفه الشخصية ، السارد يعرف أقل مما تعرفه الشخصية [١] ، فإن السارد هو الشخصية نفسه ، ولا تكاد تجد شخصيات تشارك في الحدث ، بل هو أقرب إلى السرد التاريخي ، أما في السرد البحري فتخرج لنا شخصيات لم تكن بكثافة الشخصيات في البر ، وتمارس الأدوار الثلاثة ما بين فترة وأخرى ، والسبب هو : أن البحر يفرض على السارد نفسية تلهمه أشياء لا يلهمها البر ، كما أن الشعراء لهم ما يلهمهم ويملي عليهم مشاعرهم وأخيلتهم وصورهم كالليل والفلوات والخلوات وغيرها من الأحداث والمواقف والأحوال .

وابن جبير في البحر تجده يركز على الرياح والأشرعة ، فدائما الريح الغربية رياح عاتية صانعة للألم والأسى ومغيرة للاتجاه وجاعلت هذا المركب لايدري في أي المسار يسير وفي أي الدياريكون، بينما الرياح

(١) جيرار جينيت وآخرون ، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير ، ص ١١٥

الشرقية فما هي إلا رياح باعثة لطمأنينة مفرحة للرائس " وقد من الله علينا بريح شرقية فاترة المهب "، فما يمين كيسار ولا آل[١] كبلال [٢]

وأما في البر فتجد ينصب تركيزه على المساجد وعظمتها فالتبئير من زاوية ابن جبير فيقول عن مسجد ابن طولون" وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان " فالتبئير من رؤية خارجية وكذلك رؤية داخلية فاحصة. وأيضا تركيزه في الحرم المكي على مكثر بن عيسى ، وكيف يتعامل معه بدخوله وتبجيله والقراء والقصائد في البيت العتيق فينصب السارد تبئيره على حركات الأمير ومن حوله .

(١) الآل : السراب

(٢) البلال : الماء

الخاتمة

الحمد الله الذي أتم علينا ، وشرفنا بالعلم وطلبه ، والارتحال لأجله ، فبعد دراستي لرحلة ابن جبير ، من خلال النص ولاشيء غير النص ، من خلال البنيوية السردية ، في الفصل الثاني تبين لي أن الرحلات عموما قائمة على الاستباق والاسترجاع ورصد المشاهد ، والعجائب ، واتضح لي ترابط عناصر القصة والخطاب ، في البنية السردية في رحلة (الكناني)، وقد كان رصد "الكناني للحرم المكي والمدني " وبالأخص المكي دقيقا بكل تفاصيله ، فعندما كان في الإسكندرية كان يصف المشاهد ، وبعضها يصفها وصفا سريعا ، لكن في الحرم المكي أبدع التصوير ودقق في الصغير والجليل ، فإن أردته رساما أونحاتا ، أو دارسا للمذاهب المتنوعة ، فتجده وصف الحجر والبشر ، فقد أعطى المكان تقديسه ، فهدفه الأسمى هذا المكان، أيضا يتضح لي أن (الكناني) دائما يركز في البر على المساجد ، فيتفنن بوصفها ، وإذا لم يجد شيء جميلا في المدن التي يزورها ، تجده يركز سرده على أجمل ما فيها من تعامل أهلها أو لكونها مكاننا لشخصية مقدسة، أما إذا انتقص مدينة وهو قليل ، فيوجز ويحذر، أما السرد وعناصره المشهوره ، فاخترنا ما اختاره جيرارجنيت ، من راوي ومروي له وصيغة ، فأقمنا مقارنة بين السرد في البر والبحر ، وكان إعجابنا بالرحلة في البحر ، ومشاهد درسناها على البنية السردية ، وفي عناصر السرد فوجد نا أنها قابلة هنا وهناك وهي في الرحلة لابد من رصدها .لما عرض لنا من مغامرات عدة ووقائع مهوله ، وما فيها من توديع للحياة ، "وودعنا الحياة بسلام " فأبحرنا بأهوال عدة وأخطار جمة ، فالسرد في البحر مشوق، ومهول ، وفيه إبراز للأحتاف والصعاب ، فأيقنا أن الإبحار في ريح

شرقية فيه طمأنينة وسعة ، أما عكسها من ريح غربية ، فالأمر جلل والروح فيها بخطر وهناك تساؤلا في خاطري كيف يمتطي البحر من مر تلك الأهوال ؟

أما في البر فجله مشاهدات مركزة وواصفة إما عن بعد أو قرب، ففضلنا البحر على البر في السرد ، وقد يكون لحبنا للمغامرة والميل لذلك سببا ولأن البر وصف المشاهد قد يكون فيه نزول بالسرد ، لإنه ليس فيه عمق البحر في التشويق والجذب ، ووضح جليا ارتباط " الكناني " في الله وذكره له في العسر واليسر وتعلقه بذلك "والله الميسر لاميسر غيره" وهو الذي يستمد منه قوته والأمل لإزاحة الألم .

وفي الختام أرى أن تدرس هذه الرحلة من خلال ما يصطحبه الرحالة، من كاميرا دقيقة أوجوال ذو دقة عالية في عصرنا الحالي ، ومن خلال التقنيات المتعددة والبرامج التي تضفي التجديد في الرحلة والعرض من بانوراما وسينما ، المناسب لهذا العصر ، حتى تخرج لنا هذه الرحلة في أزهى صورة وحلية، ونرجو الله التوفيق في رحلتنا العظيمة.

المصادر والمراجع

١_ ابن جبير رحلة ابن جبير ، ط٣ ، دار صادر ، بيروت ، ٢٠١٢

٢ ــ ديوان الرحالة ابن جبير ، تحقيق : منجد مصطفى بهجت ، ط ١، دار الرفاعي ، الرياض ، ١٤١٩ هـ

المراجع

١ــ أحمد محمد عطية ، أدب البحر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨م

٢ــ حميد الحميداني ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، ط١، ١٩٩١

٢ــ حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، ١٩٨٩يونيو، الكويت

٣ــ خير الدين الزركلي ، الأعلام قاموس تراجم ، الجزء الخامس، دار العلم للملايين ، بيروت

٤ــ جيرارجنيت ، خطاب الحكاية بحث في المنهج ، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي ، وعمر حلى، المجلس الأعلى للثقافة ط ٢، ١٩٩٧

٥ــ جيرالد برنس ، المصطلح السردي ، ترجمة ، عابد خزندار، مراجعة : محمد بريري ، ط ١ ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٣، القاهرة

٦ــ رولان بارت ، طرائق تحليل السرد الأدبي ، مقالة التحليل البنيوي للسرد ، ترجمة ، حسن بحراوي ، بشير القمري ، عبدالحميد عقار ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ، الرباط ، ط١ ، ١٩٩٢

٧ــ صالح محمد المطيري ، بنية اللغة وأفق الأدب ، الدار العربية للعلوم ، ١٤٣٢هـ المدينة المنورة

٨ــ عبدالله إبراهيم ، المتخيل السردي ، مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة ، المركز الثقافي العربي

٩ــ كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين هاشم إدارة الثقافة في جامعة الدول العربية ، ط١ ، ١٩٦٣، القاهرة

١٠ــ يان ما نفريد ، مدخل إلى نظرية السرد ، ترجمة أماني أبو رحمة ، مكتبة بغداد ، نينوى .

المعاجم والقواميس :

١ ــ ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، مجلد ٣ ، دار صادر بيروت، ط ١ ، ١٩٩٧

٢ــ الفيروزبادي ، محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم ، القاموس المحيط ، بيت الأفكار الدولية ٢٠٠٤ لبنان

٣ــ محمد القاضي ، معجم السرديات، مكتبة الأدب المغربي ، ٢٠١٠، تون

الرسائل العلمية

١ ــ إنعام زعل ، "صورة المرأة في أدب الرحلات من القرن الرابع الهجري إلى نهاية القرن الثامن الهجري ، الرؤيا والتشكيل " (قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة مؤتة كلية الدراسات العليا ، استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة ، ٢٠١٦)

٢ــ نعيمة كبوش ، مريم مصايد" المصطلح السردي في كتاب مدخل إلى علم السرد لمونيكا فلودرنك ، دراسة تحليلية مقارنة "(رسالة ماجستيرقسم اللغة والأدب العربي ، كلية الآداب واللغات ، جامعة البويرة بالجزائر ، ٢٠١٦)

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٣٠٢١
٢-	Abstract	٣٠٢٢
٣-	المقدمة	٣٠٢٣
٤-	التمهيد: أدب البحر	٣٠٢٨
٥-	الفصل الأول: المنهج	٣٠٣٢
٦-	أولاً: مفهوم المصطلح السردي	٣٠٣٤
٧-	ثانيا : البناء لغة واصطلاحا :	٣٠٣٥
٨-	ثالثا : الزمن السردي	٣٠٣٦
٩-	رابعا : البنية السردية	٣٠٣٧
١٠-	خامسا : حركة المشهد السردي	٣٠٣٧
١١-	الفصل الثاني دراسة النص من خلال النظرية البنيوية	٣٠٣٩
١٢-	أولاً: البنية الزمانية	٣٠٤٠
١٣-	ثانيا : بنية المكان	٣٠٥٥
١٤-	الفصل الثالث عناصر السرد	٣٠٧٣
١٥-	١ ـ الراوي :	٣٠٧٤
١٦-	٢ ـ المروي له:	٣٠٧٨
١٧-	٣ ـ الصيغة (التبئير):	٣٠٨٤
١٨-	الخاتمة	٣٠٨٨
١٩-	المصادر والمراجع	٣٠٩٠
٢٠-	فهرس الموضوعات	٣٠٩٢